كلام النساء في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

الدكتـــــــور
محمد شاكر محمد صهوان
مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية
بايتاي البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب أجمعين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

أما بعـد ....،

فمن المعلوم أن اللغة قاسم مشترك بين بني البشر، إلا أن هناك عوامل متعددة أوجدت اختلافات وفروق بين ألسن البشر، ومن هذه العوامل اختلاف الجنس، وقد لاحظ بعض علماء القرون الأولى أثر هذا العامل في اختلاف لغة المتحدث حيث وجدوا اختلافات بين الرجال والنساء في استخدام الألفاظ والتعبيرات، مما سمح لهم أن يطلقوا على بعضها أنه من ألفاظ الرجال، أو من ألفاظ النساء، ومن أوائل من أصدر مثل هذا الحكم الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، حيث يقول معلقا على قول امرئ القيس في معلقته على لسان امرأة:

فَقَالَتْ: لَكَ الوَيْلاَتُ!،إنَّكَ مُرْجِلِي(1)

: (كلام مؤنث من كلام النساء)(2)، ويرى الإمام السيوطي أيضا أن لغة الرجل تختلف عن لغة المرأة ويظهر ذلك في قوله:" كره قوم الإمالة لحديث:(أُنْزِلَ

---

(1) هذا عجز بيت وتمامه :

ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فَقَالَتْ: لَكَ الوَيْلاَتُ!،إنَّكَ مُرْجِلِي

من بحر (الطويل) من معلقة امرئ القيس ينظر الديوان : ٢٧ ، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية،١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .

(2) إعجاز القرآن للباقلاني،(المتوفى: ٤٠٣هـ): ٨١، تحقيق: السيد أحمد صقر: دار المعارف – مصر الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م

الْقُرْآنُ بِالتَّفْخِيمِ)[١]، وأجيب عنه بأوجه، منها: أن معناه أنه يقرأ على قراءة الرجال لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء"[٢]، وهذا يدل على أن للمرأة لغتها التي هي نتاج ثقافتها ومحيطها وطبيعتها البيولوجية والنفسية، وأسلوب عملها، ومهامها في المجتمع، فتختلف طبيعتها الأنثوية المُرْهَفَة الرقيقة عن طبيعة الرجل الصلبة الشديدة، فنعومة طبعها و ظرافة خُلُقها تجعلها سريعة الانفعال تجاه مصطدمات الأمور، ويظهر ذلك على لسانها على خلاف الرجل في تريثه و مقاومته عند مقابلة الحوادث، وقد أصبح موضوع وجود التمايز اللغوي بين الجنسين محل إقرار كثير من اللغويين ودارسي اللغة"[٣]، خصوصا أن هناك دراسات أثبتت وجود بعض الفروق اللغوية بين الرجل والمرأة على مستوى الكلمة والجملة والتصوير، وأثبتت أن الأنثى تميل إلى الألفاظ الدالة على قوة المشاعر والعواطف والانفعالات، كما أنها تميل إلى اللطافة والحب والود والمشاعر والأمومة،[٤] وقد ساعد هذا على ظهور علم اللغة الاجتماعي الذي جعل لاختلاف الجنس أثرا واضحا في اختلاف اللغة؛ وذلك لأن الاختلافات اللُّغوية تُعدُّ انعكاسًا للاختلافات الاجتماعية، ومعلوم أن المجتمع يقدم كلا من المرأة والرجل على أنهما جنسان مختلفان، فكان لا بد من اختلافات لغوية بين الجنسين، وبالفعل أصبح الواقع الثقافي والأدبي واللغوي

---

(١) من حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ، المستدرك على الصحيحين:للحاكم (المتوفى: ٤٠٥هـ):٢/ ٢٥٢ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩٠ م، وضعفه الألباني، السلسلة الضعيفة:٣/ ٥٢٠، مكتبة المعارف – الرياض، بدون تاريخ.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٣٢١، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٣) اللغة والجنس ، عيسى برهومة : ١١٥، ١١٩. دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٢م .

(٤) اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر: ٩٧ عالم الكتاب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.

يمدنا بوفرة من المفردات والأساليب، والتعابير التي تتصل بالمرأة أكثر من الرجل، كالولولة، والتفجع، والخفر، وما يصاحب ذلك من مفردات، وتعابير، بل تعدى الأمر من الكلمات إلى الحروف فتجد إشارات لارتباط الجانب النسائي ببعض الحروف، يقول ابن القيم: "... فالمجهور أو الشديد من الحروف أولى منها للبيان والذال مجهورة فخصت بالإشارة إلى المذكر وخصت التاء بالإشارة إلى المؤنث لأجل الفرق وكانت التاء به أولى لهمسها وضعف المؤنث"(١).

ومن يتأمل البيان القرآني يجد أنه وضع فوارق أسلوبية بين الشخصيات المختلفة التي ورد على لسانها كلام، فراعى خصوصيات كل نوع؛ لأنه كلام رب العالمين خالق البشر، والعالم بطباعهم، وأحوالهم القادر على أن ينقل لنا ما دار على ألسنتهم بما يكشف عن مقاصدهم؛ ومعلوم أن القرآن عندما ينقل لنا كلام الغير فإنه ينقله كما أراده المتكلِّم في قرارة نفسه، وبدلالته العميقة، بلغة أحسن وأكمل من تعبير المتكلم نفسه، ومن هنا تجد القرآن يظهر فروقا في كلام بني البشر تميز كلام كل جنس عن الآخر فكلام الرجل يختلف عن كلام المرأة، بل إن القرآن جعل هناك فروقا بين الشخصيات المختلفة في الجنس الواحد، فخطاب المرأة المتزوجة يغاير خطاب غير المتزوجة، وكلام المؤمنة يغاير كلام الكافرة، وكلام الأم يختلف عن كلام البنت، وكلام الملكة يختلف عن كلام العابدة ...إلخ، مع التسليم بوجود قواسم مشتركة بين الجنس البشري عموما، وقد رأيت أن القرآن الكريم قد اهتم بذكر كلام النساء على مختلف مشاربهن وتعدد أوضاعهن الاجتماعية، واختلاف الأدوار التي قمن بها، وهذا دفعني إلى تتبع المواضع القرآنية التي نقلت لنا كلام النساء في

(١) بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية: ١/ ١٩٠، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة الطبعة الأولى ، ١٤١٦ – ١٩٩٦

القرآن على مختلف منازلهن؛ لتحليله تحليلا بلاغيا رغبة في الوقوف على بعض خصائص كلام النساء في أفصح بيان، فجاءت الدراسة بعنوان:

كلام النساء في القرآن الكريم دراسة بلاغية .

وكما يتبين من العنوان؛ فإن الاستقصاء كان هدفاً ومطلبًا أصيلاً في هذه الدراسة، رجاء الانتهاء إلى نتائج راسخة ومطردة، لا تتوفر في الاختيارات والنماذج .

ولما كان هذا هو هدف الدراسة، عمدت أولاً إلى جمع كل الآيات التي ورد فيها كلام على لسان النساء، وقمت بترتيبها على حسب ورودها في القرآن جامعا كلام كل شخصية في مبحث مستقل؛ ليكون ذلك طريقا إلى الوقوف على سمات كل شخصية وخصائص أسلوبها على حدة مع مراعاة السياق الذي ورد فيه الكلام .

وقد خرجت هذه الدراسة في مقدمة، وتسعة مباحث وخاتمة وثبت للمراجع وفهرس للموضوعات.

أما المقدمة فقد جليت فيها طبيعة هذه الدراسة وهدفها ومنهجها ، وكانت الدراسة البلاغية التحليلية في تسعة مباحث، هي:

المبحث الأول: من الخصائص البلاغية لكلام امرأة عمران .

المبحث الثاني: من الخصائص البلاغية لكلام مريم .

المبحث الثالث: من الخصائص البلاغية في كلام سارة زوج إبراهيم عليه السلام.

المبحث الرابع: من الخصائص البلاغية في كلام امْرَأَة العزيز، ونسوة مصر.

المبحث الخامس: من الخصائص البلاغية في كلام بلقيس

المبحث السادس: من الخصائص البلاغية في كلام آسية امرأة فرعون

المبحث السابع: من الخصائص البلاغية في كلام أم موسي عليه السلام وأخته .

المبحث الثامن: من الخصائص البلاغية في كلام بنتي شعيب

المبحث التاسع: من الخصائص البلاغية في كلام حفصة زوج النبي ﷺ.

وشفعت البحث بخاتمة سجلت فيها أهم نتائج الدراسة، وثبت بأهم المصادر والمراجع، وأسأل الله العظيم أن يغفر لي زلاتي، ويتجاوز عن سيئاتي، ويعفو عن تقصيري، ويثبتنا على الهدى، ويعيننا على التقوى، ويرزقنا خشيته وطاعته، ويجمعنا مع نبيه وحبيبه سيدنا محمد ﷺ في مستقر رحمته ودار كرامته، وأن يجعل هذا البحث وصلة لذلك وقربى، وأن يمنح والديّ وإخوتي وأبنائي وسائر أهلي ومشايخي من ثوابه، فالفضل بيده سبحانه يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

المبحث الأول

(من الخصائص البلاغية لكلام امْرَأَت عِمْرَانَ)

ورد كلام امرأة عمران في سورة آل عمران في الآيتين (٣٥، ٣٦) ويعد كلام تلك المرأة نموذجا يكشف للمتلقي بعض سمات المرأة الصالحة التي عمر قلبها بالإيمان فتعلق بربها، وأخلصت له الحب حتى تسامى بها فأصبحت فريدة عقد نماذج المحبة، فهي تناجي ربها وتتضرع إليه، وتقدم له أعز ما تملك، وهي بذلك تعطينا درسا واقعيا يكشف عن أثر الإيمان على المرأة .

قال الله تعالى:﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾(آل عمران:٣٥، ٣٦)

عرض السياق والمعنى:

السياق يبدأ من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣)، حيث بيَّن النظم هنا جلالة أقدارِ هؤلاء الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وأتبع ذلك ذكر مبدأ أمرِ عيسى عليه السلام وأمِّه، وخلال هذا السياق قص القرآن جانبا من حال أم مريم التي عرفت باسم حَنَّة بِنْت فَاقُوذ، وكانت عجوزًا عاقرًا حبست عن الولد، فأخذت تدعو ربها أن يهب لها ولدا فحملت بمريم(١)، وقص النظم كلامها في موضعٍ واحدٍ من القرآن الكريم، ولعل ذلك راجع إلى أن ما حدث معها ليس من الأمر

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (المتوفى:٦٠٦هـ):٢٠٣/٨، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٢هـ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (المتوفى:١٢٧٠هـ):٢/ ١٢٨، ١٢٩، تحقيق: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ .

المقصود بذاته وإنما كان توطئة لقصة عيسى وأمه ـ عليهما السلام ـ؛ لهذا اكتفى القرآن بذكر قصة امرأة عمران في سورة آل عمران، وأعاد ذكر قصة مريم في مواضع أخرى؛ لأنها هي الغاية المنشودة وفيها العبرة المطلوبة.

ومن المعلوم أن سورة آل عمران نزلت في وَفْدِ نَجْرَان الذي حاج النبي ﷺ في أمر عيسى عليه السلام[1] ومن أهم مقاصدها إثبات الوحدانية لله ﷻ، فأثبت الوحدانيه له بإبطال إلهية غيره بإثبات أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان يحيي الموتى عبده فغيره بطريق الأولى، وأنبأ عن ابتداء ما اختص منه بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قول أم مريم امرأة عمران حين أجرى على لسانها وأخطر بقلبها أن تجعل ما في بطنها نذراً، ففصل ما به ختم من اصفطاء آل عمران، ولذلك عرفت أم مريم في هذا الخطاب بأنها امرأة عمران ليلتئم التفصيل بجملته السابقة[2].

من بلاغة كلام امرأة عمران:

أول ما يسترعى الانتباه هو ما مهد به القرآن الكريم لكلام امرأة عمران وهو قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة آل عمران الآيتان :٣٣ ، ٣٤) وهذا البَدْءُ يعد براعة استهلال إذ إنه يأخذ بذهن السامع ويهيئ له جوا لطيفا للوقوف على ملامح شخصية تلك المرأة، وما تمتعت به من صلاح، وتقوى، ومنزلة رفيعة عند ربها، وذلك عن طريق الثناء على آل عمران، ومعلوم أنها داخلة في هذا الثناء، لينتقل بعد ذلك لتخصيص الحديث

(١) يراجع أسباب النزول علي بن أحمد بن علي الواحدي، النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨هـ) :٩٧، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

(٢) يراجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ): ٤/ ١٩٦، ٣٥٠، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

عنها، وما حدث معها ذاكرا ما صدر منها من كلام خلال حوارها مع ربها، كما أن هذه المقدمة المتمكنة في موقعها تأخذ بالذهن أيضا إلى ما بعد قصة حملها وولادتها إلى بيان طبيعة من ستلد، فهي ذرية مصطفاة وبالفعل كانت مريم هي المولودة، ولم تقف التهيئة عند ما وقع مع الأم، بل انتقلت إلى البنت نفسها من خلال ما حدث لها من اصطفاء، تلاه اختبار وولادة حيث كان أمر المسيح عليه السلام.

وقدم القرآن الكريم لكلام امرأة عمران بقوله: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ**[1] **عِمْرَانَ**﴾ حيث صدر الآية بـ (إذ)" للاهتمام بالخبر"[2]، والاهتمام هنا حاصل عن طريق ما احتملته (إذ) من توجيهات[3] أدت إلى اتساع المعنى والدلالة على الاعتناء به، وعُرِّفت تلك المرأة بالإضافة إلى زوجها؛ لأن مكانة المرأة المتزوجة في مجتمعها تكون من قِبَلِ زوجها خصوصا إذا كان مشهورا في قومه، كما أن التعريف بالإضافة إلى الزوج يتناسب مع أحداث السياق وموضوعه وهو الحمل والولادة، ومعلوم دور الزوج في هذا الأمر، كما أنه سبق وذكر آل عمران قبل هذا الحديث، إذًا فهو موجود في الذهن والتعريف به يؤدي إلى ربط السياق بعضه ببعض، كما يمكن النظم من حسن التخلص والدخول إلى الحديث عن حال تلك المرأة دون أن ينبتر الكلام، كما أنه من

---

(١) رسمت تاء (امرأت) مفتوحة في سبعة مواضع كلها ورد فيها لفظ المرأة مضافا لزوجها.

(٢) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٣٢.

(٣) من هذه التوجيهات: أن الظرف (إذ) منصوب على المفعولية بفعل مقدَّرٍ على طريقة الاستئنافِ لتقرير اصطفاءِ آلِ عمرانَ وبيانِ كيفيته، وقيلَ هو منصوبٌ على الظرفية لما قبله أي سميع لقولها المحكيّ عليمٌ بضميرها المَنْويّ وقيل هو ظرفٌ لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آلَ عمران إذ قالت. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ينظر أبو السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ) :٢/ ٢٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

المعلوم أيضا أن نهج القرآن الكريم في الحديث عن النساء ألا يذكرهن بأسمائهن[1]؛ لأن من طبيعة المرأة الستر والخفاء.

وعبر النظم عن تلك المرأة بلفظ (امرأة) دون زوجة؛ ليدل على وقوع أمر طارئ أخل بالحياة الزوجية[2]، هذا الطارئ هو وفاة زوجها، ومعلوم أن عمران مات وزوجه حامل[3]، وهذه الإشارة تهيىء المتلقي لمعرفة طبيعة المتكلم، فهي عجوز حملت في سن متقدمة، ومات عنها زوجها.

ولم يصرح النظم الحكيم بالحالة التي نادت بها تلك المرأة ربها، كما صرح بذلك مع سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ حيث قال تعالى في حقه: ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**﴾ (سورة مريم: ٣)، ولعل النظم لم يصرح بذلك مع امرأة عمران؛ لأنه من المعلوم أن المرأة . خصوصا إن كانت من الأتقياء ـ إذا تكلمت أو تضرعت حرصت على خفض صوتها؛ لأن ذلك من طبائعها، كما أن هذه المرأة من الصالحات اللاتي يعرفن أن الله منهن قريب يسمع دعاءهن ولو لم يتلفظن به، ولكن النظم صرح مع سيدنا زكريا ﷺ بأنه قد خفض صوته؛ لأنه من المعلوم أن طبيعة الرجال تختلف عن طبيعة النساء فصوت

---

(١) لم يذكر القرآن اسما من أسماء من تحدث عنهن من النساء إلا مريم ـ عليها السلام ـ وقد ذكر الإمام السهيلي ـ رحمه الله ـ أن الأصل عند الأشراف والملوك ألا يذكروا حرائرهن ولا يبتذلوا أسماءهن، بل يكنّوا عنهن، وأما الإماء فيصرح بأسمائهن، فلما قالت النصاري في مريم وابنها ما قالوا من الغلو، صرح الله باسمها تأكيدا للأمومة والعبودية، "يراجع التعريف والإعلام فيما أبهم من أسماء الأعلام في القرآن الكريم، للسهيلي: ١٠٩، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م .

(٢) وهذا شأن القرآن فعند استقراء الآيات القرآنية التي جاء فيها لفظ (زوج، وامرأة)، نلحظ أن لفظ (زوج) يُطلق على المرأة إذا كانت الزوجية تامّة وهناك توافق وانسجام لا يشوبه اختلاف ديني أو نفسي أو جنسي ... فإن لم يكن التوافق كاملاً ، ولم تكن الزوجية متحقّقة بينهما، فإن القرآن يطلق عليها (امرأة) وليست زوجًا.

(٣) مفاتيح الغيب : ٨ / ٢٠٣ .

الرجال جهور، فلكي لا يخيل لأحد أن زكريا رفع صوته في دعائه؛ صرح بأنه نادى نداءً خفيا، واقتصر على التصريح في سورة مريم لأنها أسبق في النزول فهي مكية، بخلاف آل عمران فهي مدنية، فاكتفي بالتنبيه في السابق دون اللاحق .

وتستهل تلك المرأة المؤمنة كلامها بنداء عابدة فيه همس يشعر بأنها منفردة مع ربها، تحدثه بما في نفسها، وتعيش في معيته وكفالته في كل أحوالها؛ ومن الملاحظ أنها استحضرت ألفاظا وأساليب استطاعت من خلالها أن تكشف عما في قلبها من إيمان وصدق نية، فكان أول ما صدر منها كلمة (رَبِّ) مجردة من كل ما يثقلها، حيث حذفت أداة النداء[1]؛ إشعارا بأن الله سبحانه وتعالى . قريب منها فلا يحتاج إلى رفع صوت ولا تنبيه، وخصوصا أن الأداة (يا) ينادى بها البعيد أو الغافل الساهي، ففي ندائها تستشعر لذة الائتناس والقرب والمناجاة، وفي حذف الأداة ما يتناسب مع المناجاة التي تقتضي الإسرار والاختلاء، "إذ إن النداء يتشرب معنى الأمر الذي لا يليق مع ذات الله، وحذف الأداة يزيل هذا المعنى ويخلصه للتعظيم والإجلال"[2]، بالإضافة إلى أنها لا تريد لحرف النداء أن يؤخر ذكر لفظ الرب على لسانها وقد امتلأت نفسها امتنانا للفضل العظيم عليها من هذا الرب الكريم، وبهذا

---

(١) الأصل (يارب) وإنما قدرت (يا)؛ لأنها تختص دون غيرها بالحذف،يراجع مغني اللبيب،ابن هشام:٢ /٣٧٣، تحقيق: محمد محيي الدين، المكتبة العصرية،١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

يرى الدكتور المطعني ـ رحمه الله ـ أن سبب تكرار هذا الحذف هو أن كلمة (رب) يكثر استعمالها في الدعاء، فروعي فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع في الألسنة، وأسهل في مجاري الحديث"، يراجع خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د/ المطعني : ٢ / ٨، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) ينظر من أسرار التعبير في القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين: ١٧٧، الطبعة الأولى شركة مكتب عكاظ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .بتصرف .

يكون حذف حرف النداء قد كشف عن خوالج نفسية بداخل تلك المرأة المؤمنة التي أرادت أن يكون أول ما تتلفظ به هو لفظ (الرب) كي يوافق ذكر الرب على لسانها ذكره في قلبها، فاقتضى التعجيل في الطلب الاختصار في التعبير، كما أن السياق حذف (ياء) المتكلم من (ربي) وهذا الحذف يقوي دلالة شعورها بقرب من تناديه.

وفي اختيار لفظ (رب) دون غيره ما يتناسب مع مرادها من دعائها ومعلوم أنه "إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤه فليدعُ الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته"[1]، كما أن تصدير الدعاء بلفظ الرب دل على إقرار ودعاء، أما **الإقرار** فيتمثل في أن الله مالكها ومالك ما في بطنها؛ فرب الشيء يعنى مالكه والمتصرف فيه، أما **الدعاء** فيتمثل في طلبها إصلاح أمر ما في بطنها ودفع السوء عنه؛ وذلك لأن من معاني الرب المصلح الذي يصلح الأشياء ويدفع عنها ما يفسدها والمربي لها؛ لهذا يكون في استعمالها هذا النداء براعة استهلال .

وأتي كلامها ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ في صورة التأكيد وهذا الضرب من التوكيد لم تنظر فيه امرأة عمران إلى حال من تخاطبه؛ لأنها تخاطب السميع العليم، وإنما نظرت فيه إلى حال نفسها، فأتى الكلام مطابقا لشعور نفسي قد تملكها فخرج الكلام منها كاشفا عن مدى انفعالها بما قررت فعله، ومدى حرصها على الوفاء بنذرها وتأكيدا على إنجازه، خصوصا أنها امرأة ضعيفة رزقت هذا الحمل في سن متأخرة، وبعد سنوات طوال عانت خلالها الحرمان، فالعقل يقول: إنها لن تفارق مولودها وستجعل منه سنداً وعزوة وأمانًا من الوحدة والضياع، وإذا كانت المرأة بطبيعتها الضعيفة تكون أكثر ميلاً إلى الولد؛ لتعوض من خلاله ذلك الضعف الذي تشعر به، فإن

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (المتوفى: ٩٨٢هـ) : : ٢ / ٢٧ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

امرأة عمران قد اجتمع عليها ضعف آخر هو فقد الزوج والعائل، مما يجعل حاجتها إلى الولد أشد من حاجة غيرها، إلا أنها خالفت تلك الرغبات الإنسانية، وآثرت التأكيد بـ(إنّ) التي مكنتها من استعمال (ياء) المتكلم، وهذا يشعر السامع بمدى عنايتها بهذا النذر الذي قطعته على نفسها، ورغبتها الأكيدة على الوفاء بالنذر، وأنه لن يحول بينها وبين ذلك أي حائل حتى ولو كان حبها الشديد لهذا المولود الذي انتظرته طويلاً وصارت حاجتها إليه بعد وفاة زوجها أشد وآكد، كما أن هذا النذر ممن في حالتها يعد مستغربا؛ لهذا حرصت على تأكيده.

وقدم المسند إليه على خبره الفعلي في (إني نذرت) ليفيد قصر هذا الفعل عليها؛ لأن الوالد قد مات وأصبح هذا الأمر مرده إليها، كما أن هذا التقديم فيه نوع من التأكيد التي قصدته تلك المرأة لتكشف عن قوة عزمها وشدة إرادتها لإنجاز هذا النذر ودخلت (إنّ) على الجملة الاسمية (أنا نذرت) لتضفي على السياق مزيدا من التأكيد عن طريق تكرار الضمير العائد إليها مرتين مرة ضمير المتكلم، ومرة (تاء الفاعل)، وعبرت بالماضي (نذرت) لتدل على صدقها وقوة إيمانها، كما أن صيغة الماضي تدل على أن الفعل كان يشغلها منذ زمن بعيد، إلا أنه حينما اكتملت لديها مقومات إيجاده أعلنت عنه، كما أن صيغة الماضي قوت من معنى التوكيد، إذ جعلت الفعل في حكم ما وقع وانقضى ولا مجال للرجوع فيه، وهذا يشعر بمضي عزيمتها في تحقيق ما نوت فعله "فلم تكتف بنية النذر حتى أظهرته باللفظ"[1]، كما أن مادة الفعل (نذر) تفيد أنها أوجبت على نفسها أمرا ليست مكلفة به ولم يفرض عليها، إلا أنه يدل على عشقها للتكليف وهذا كله أدعي لأن تصدر تلك المرأة كلامها بالتوكيد.

(١) البحر المحيط، لأبي حيان(المتوفى:٧٤٥هـ):١١٣/٣، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر– بيروت: ١٤٢٠هـ

وفي التعبير بالجار والمجرور في (لك) ما يظهر الإخلاص لله والتجرد عمن سواه، فـ(اللام) تشير إلى معنى الملكية والاختصاص[١]، كما أن تقديم الجار والمجرور (لك) على قوله: ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ دل أيضا على كمال العناية بالمقدم، واختصاصه تعالى بهذا النذر دون غيره، حتى أمه، وهذا أدل على إخلاصها وصدق نيتها، وقد تكون (اللام) في (لك) لام السبب، فيكون في الكلام إيجاز حذف والتقدير : لخدمة بيتك، أو للاحتباس على طاعتك .

وعبرت عن جنينها بـ(ما) الموصولة دون (من) لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء[٢]، حيث إنه لم يكتمل عنده التمييز والعقل، وهذا يدل على أنها أسرعت وبادرت بنذرها لربها عند أول لحظة شعرت فيها بحملها، ولم تنتظر حتى يخرج للحياة، وهذا يتناسب مع تعبيرها عن حملها بقولها:﴿فِي بَطْنِي﴾ أي أنها نذرته وهو ما زال في بطنها، وهذا التوقيت الذي نذرت فيه جنينها يوحي بأن امرأة عمران سبقت رغباتها وأعلنت عزمها، وصرحت بنذرها قبل أن تضع طفلها، خوفا من أن يغلبها شعور الأمومة وحنانها إذ هي رأت وليدها، فمن المعلوم أن الأمومة فطرة فطر الله النساء عليها مما يجعلهن يمتزن بسرعة الاستجابة لمطالب أطفالهن؛ لهذا نجد امرأة عمران قد سبقت نفسها بهذا النذر حتى تقطع عن نفسها باب العودة من هذا النذر، أواحتمال النسيان خصوصا وأن النساء من طبعهن النسيان، ولقد أكد القرآن على هذه

(١) خص سيبويه (اللام) بمعنى الملك والاستحقاق، الكتاب:٤/٢١٧، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م. وقد أرجع المرادي كل معاني (اللام) إلى معنى الاختصاص، يراجع الجنى الداني في حروف المعاني: ١٠٩، تحقيق طه محسن، مؤسسة الرشد الرياض، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م.

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ): ٣/ ١٣٢ تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط: دار القلم، دمشق، روح المعاني: ٢/ ١٢٩ .

الحقيقة[1] وأثبت العلم الحديث أن الحمل يتسبب في ضعف ذاكرة النساء، وهذه الحالة تستمر لفترة ما بعد الدولادة.

كما أن التعبير بـ(ما) أعم من التعبير بـ(من) والعموم هنا يتناسب مع السياق الذي نشرت فيه تلك المرأة المؤمنة جوًا من الإيمان المتدفق الذي أعلنت من خلاله عموم تجرد ملكيتها مما في بطنها؛ وهذا لا يتحقق بطرق التعبير الأخرى كقولها: (إني نذرت لك جنيني أو حملي)، فهذه التعبيرات لا تتناسب مع جو الإبهام والعموم، بالإضافة إلى أنها لا تريد أن تذكر في كلامها ما يدلل على تعلق نفسها بما في بطنها، فما في بطنها لم يعد ملكا لها، وليس لنفسها فيه نصيب، فهي قد حررته خالصا لوجه الله، وهذا المعنى لم يكن يتحقق لو قالت: (جنيني) أو (حملي)، فالإضافة تشعر بملكيتها وهي لا تريد مثل هذه الملكية، إذ كيف تجعله خالصا لله ثم تنسبه لنفسها!، والجار والمجرور: ﴿**فِي بَطْنِي**﴾ أحدث فيضا من المعاني في السياق فهو كناية عن تأكد حملها، وإشارة إلى جنينها، ويصلح أن يكون مجازا مرسلا علاقته الكلية، فبطنها تشتمل على أشياء كثيرة منها الجنين، إلا أن التعبير بالبطن كاملة يتناسق مع معنى العموم الذي أشاعته (ما) في السياق، وأكده حرف الجر (في) وما دخل عليه[2]، إذ إن (في) تدل على الظرفية وتجعل من البطن وعاء مغلقا يحوي أشياء خفيت حقيقتها على تلك المرأة، كل هذه الأشياء قد نذرتها لربها، وهذا أبلغ في بيان صدق نيتها، كما أن لفظ (البطن) فيه أيضا معنى الخفاء والستر[3]، وهذا يتناسب مع ما دلت عليه (ما) و(في) من معنى

(١) ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**﴾ البقرة (٢٨٢).

(٢) (في بطني) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول (ما).

(٣) (يقال لكل غامض: بطن ولكل ظاهر ظهر...ويقال لما تدركه الحاسة ظاهر، ولما يخفى عليها باطن) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (المتوفى:٥٠٢):١٣٠، تحقيق صفوان عدنان، الطبعة الأولى، الدار الشامية بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .

العموم، كما أن فيه تسليما لربها واعترافا بجهلها وإقرارا منها بقصر علمها وسعة علم الله .

كما أن استعمال البطن دون الرحم فيه نوع من التأدب بعدم التلفظ بكلمة لا يحسن التصريح بها، خصوصا وأنها تناجي ربها، بالإضافة إلا أنها امرأة حياؤها يمنعها من التصريح بمثل هذا، كما أن التعبير بالبطن يسير وفق سنن القرآن حيث يعبر عن وعاء الجنين بالبطن(١)، ولعل في ذلك إشارة إلى أن الجنين وهو في رحم أمه يكون على اتصال بجميع أجهزة البطن "فساعة يكون الجنين في بطن أمه تكون حياته حياة تبعية، فكل أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة"(٢)، وهذا يتناسب معه التعبير بالبطن دون الرحم .

كما أن إيثار هذا التعبير ﴿**فِي بَطْنِي**﴾ يكشف عن خصيصة من خصائص النساء، فإذا كان الرجل والمرأة يشتركان معا في تكوين الجنين، فيصلح للرجل أن يقول جنيني وكذا للمرأة، إلا أن المرأة تختص بالحمل و بكونها حاملة الجنين في بطنها، وهذا يؤصل لمبدأ عظيم يكشف عن منزلة اجتماعية من منازل المرأة، حيث جعلها القرآن وعاء المجتمع وأصله.

ولما كان زوجها قد مات، وهي تريد أن تتنازل عن حق لها عبرت بما يدل على انفرادها بملكية الجنين فقالت: ﴿**ما فِي بَطْنِي**﴾ بحيث يمكنها أن تفعل به ما تشاء، وفي إضافة البطن لـ(ياء) الملكية ما لا يتعارض مع ما قيل في

---

(١) ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ ،(سورة النحل: ٧٨) وقوله تعالى: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ (سورة الزمر: ٦) وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ (سورة النجم:٣٢).

(٢) تفسير الشعراوي، للشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) : ١٣ / ٨١١٢، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م).

عدم استخدام لفظة (جنيني، أو حملي) فهي لم تنذر بطنها وإنما نذرت ما فيها.

و(ما) في قوله: ﴿**مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ تشمل الذكر والأنثى إلا أن المرأة حينما جزمت الدعوة في قولها: ﴿**مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ اشتمل كلامها على معنى الكناية عن الذكر؛ لأن هذا التحرير لم يكن جائزا إلا في الغلمان، أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك؛ لما يصيبها من الحيض والأذى[١]، وعدم التصريح بطلب (الغلام) فيه نوع من التأدب مع خالقها، فلم تسبق قدر ربها بتحديد نوع ما في بطنها، كما أن الكناية مكنتها من التصريح بالغاية التي من أجلها رجت أن يكون مولودها ذكرا.

و(محررا) حال قيدت به تلك المرأة نذرها، وأعلت به من عزيمتها؛ فعلى الرغم من تقدم عمرها وشدة حاجتها إلي من يرعاها إلا أنها تنازلت عن حقها في ولدها؛ "لأن الأمر في دينهم كان الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه وجب عليه أن يخدم أبويه"[٢]، إلا أن امرأة عمران تكون بهذا النذر قد تركت هذا النوع من الانتفاع وتنازلت عنه، وجعلت مولودها محررا لخدمة بيت الله . تعالى .؛ وبهذا يكشف الحال عن فيض من الإيمان ملأ قلب تلك العجوز مما جعلها تقدم على ما فعلت دون تردد، كما أن مدلول الصيغة وما تدل عليه من" التكثير والتكرير فيه إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عما في بطنها بالكلية؛ لتسلم ولايته لله . تعالى .". [٣]

والمتأمل لموقف تلك العجوز يحس في ظاهره بالتناقض، حيث إنها في بادئ أمرها طلبت الولد بعدما حرمت منه فترة طويلة، وعانت بسبب ذلك – شأن أي امرأة تحرم من هذه النعمة ـ الكثير من الآلام النفسية، ومعلوم أن

---

(١) مفاتيح الغيب : ٨/ ٢٠٣ .
(٢) مفاتيح الغيب: ٨ / ٢٠٣.
(٣) نظم الدرر: ٤ / ٣٥١.

المرء إنما يطلب الولد للأنس به، إلا أنّ هذه المرأة ما كادت تشعر بتفضل ربها عليها بعطائه حتى نذرت مولودها لربها، وأقرت أن حظها من الأنس به متروك، وهو على خدمة الله . تعالى . موقوف، ولكن إذا علم أن قصة امرأة عمران أتت في سياق الاصطفاء؛ فهي من ذرية مصطفاة، تتناقل صفات الصلاح فيما بينهم ويتوارثون التقوي جيلا بعد جيل، فهي جعلته نذرًا مقصورًا على بيت المقدس؛ ليتسنى له السير على درب أبيه في الصلاح والتقوى، فإذا علم ذلك زال الشك والريب في أمر تلك المرأة الصالحة، وعلم أن غايتها ليست كغايات البشر، وكأنها ما طلبت من بادئ الأمر الولد إلا من أجل ما فعلته، لذلك لم يذكر القرآن على لسانها الغاية الأولى، بل اقتصر على النذر، بخلاف سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ الذي أعلن الغاية صريحة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (سورة مريم : ٤-٦)، ولعل ذلك يكشف عن بعض الفوارق بين الرجل والمرأة بالنسبة لميلهم إلى الإنجاب، فالرجل بغيته الأسمى أن يكون ابنه امتدادا له حاملا اسمه راعيا لشؤون البيت بعده، وهذا ما لا يوجد عند المرأة، وقد تجلى ذلك الأمر على لسان زكريا . عليه السلام . وزوج عمران.

وتواصل امرأة عمران – من خلال ما جاء في القرآن الكريم على لسانها – الكشف عن ملامح شخصيتها وذلك في قولها:﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، فامرأة عمران الصالحة التقية التي بلغت تلك المنزلة من اليقين لا تكتفي بتقديم النذر، ولكنها تخاف من أن يتدخل في عملها ما يحبطه ويرده عليها، فتسرع بالتضرع إلى ربها راجية إياه أن يقبل منها نذرها، وفي هذا حسن أدب منها مع خالقها؛ لأنها لم تجزم بالقبول وإنما طلبته من ربها.

وأتى فعل الأمر (تقبّل) دالا على الالتماس والدعاء، إلا أنها آثرت استعمال فعل الأمر لإظهار رغبتها الشديدة في قبول النذر؛ إذ إن العدول عن لفظ

الدعاء الخبري إلى الأمر يكون تفاؤلا بالاستجابة مع السرعة؛ لأن من شأن الأمر الحقيقي أن يجاب على الفور، كما أن لفظة (تقبّل) تدل بزيادة مبناها على زيادة معناها وكأنها قصدت بذلك تحقيق أقصى درجات القبول .

و(الفاء) في قوله (فتقبل) هي الفاء الفصيحة الدالة على شرط محذوف، وبهذا يكون كلام امرأة عمران قد اشتمل على إيجاز حذف، والتقدير: (إن رضيت عني فتقبل مني) فطوى النظم الشرط وفعله؛ لدلالة الطلب والجواب عليه، كما أن هذا الطي يصل بكلامها إلى مرادها، تفاؤلا بتحقيقه على وجه السرعة.

وأتت فاصلة الآية﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ممكنة في موقعها؛ لأنه لما كان نذرها كلاما تلفظت به في صوت خفي يتناسب مع حيائها؛ فقد أتت بـ(سميع)؛ لأن القول لفظ مسموع، ولما كان ما تلفظت به قد رسخ في صميم قلبها ونبع من إيمان ملأ جنباتها، طلبت منه . سبحانه . في دعائها أن يتقبل منها نذرها لصدق نيتها، ناسب ذلك وصفه سبحانه بأنه (عليم)؛ لأن العلم يتناسب مع الإحاطة بقصد القائل وما يضمره صدره من صدق أو كذب، كما أن كونه . سبحانه وتعالى . عالما بصحة نيتها وإخلاصِها، مستدعٍ لاستجابة دعائها، وبهذا تكون الفاصلة قد جمعت كل أطراف الحديث السابق.

وأتت بتلك الصفتين معرفتين لتمكين الوصف من الموصوف؛ وبهذا تكون الجملة الخبرية ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فيها معنى الثناء والمدح والتعظيم لله .

وقد اشتملت الفاصلة على حشد من المؤكدات منها: تصدير الفاصلة بـ(إن)، والضمير المنفصل (أنت)، واسمية الجملة، وهذا كله يبين مدى قوة يقينها بمضون تلك الفاصلة فأخرجته في كلامها كما أحسته .

وفي استعمالها كاف الخطاب في (إنك) مايشعر بقربها من ربها، ليتلاقى ختامها مع ما بدأت به من قرب دل عليه نداؤها الذي استهلت به حديثها، وهذا أرجى في قبول نذرها .

وقصرت صفتي السمع والعلم عليه ـ سبحانه وتعالى ـ عن طريق توسط ضمير الفصل (أنت)؛ لبيان أنها قد خصت الله ـ سبحانه ـ بدعائها دون غيره، ولبيان "انقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية؛ مبالغة في الضراعة والابتهال"[(١)]، فهي تعلم أنه لن يسمع نجواها ولن يعلم بصدق نواياه إلا هو.

ويتخلل كلامها شرط (فَلَمَّا[(٢)] وَضَعَتْهَا) مسبوق بـ(فاء) استئنافية لإنشاء كلام جديد وقع منها بعد ولادتها، وتبين ما في بطنها، وتحطم آمالها؛ ومن الملاحظ أن القرآن الكريم حينما يحكي قصة إنجاب الولد مع المرأة يسلط الضوء على جانب الولادة، وهذا يظهر جليا مع امرأة عمران، ومع مريم، أما حينما يكون الحديث مع رجل فلا يذكر حادث الولادة، ولعل هذا الأمر يرجع إلى أن حدث الولادة بالنسبة للمرأة له وقع كبير في نفسها، فهو أمر ليس بالسهل الهين وإنما هي عملية تظل في ذاكرة المرآة لا تنساها ولها آثار نفسية عليها؛ لذا حرص القرآن على ذكرها مع امرأة عمران، وبنتها مريم.

واستعمل لفظ (وضعت) دون (ولدت)؛ لأن الوضع يحمل معنى الاستثقال إذ من معانيه "إلقاء الشيء المستثقل"[(٣)]، وهذا يتناسب مع ما وجدته تلك المرأة من هم وحزن ساعة علمت أن مولودها أنثى.

وأتى النظم بـ"لما"؛ للدلالة على شدة التلازم بين الشرط وجوابه، والذي يفيد أن ما صدر منها من قول تزامن وجوده مع تزامن وضعها لمولودها، وهذا يدل على أن امرأة عمران كانت مترقبة لحظة ولادتها مشغولة بما في بطنها، فلم

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٢/ ٢٨ .

(٢) (لما) ظرف بمعنى حين متضمن معنى شرط غير جازم، ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي :٤/ ١٨٩٦، ١٨٩٧، تحقيق وشرح د/ رجب عثمان ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، الجنى الداني في حروف المعاني: ٥٩٤ .

(٣) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، د/ محمود عبد المنعم: ٣ / ٤٨٤ ، دار الفضيلة بدون تاريخ .

يشغلها ألم الولادة عن الحديث مع ربها، كما أن بناء هذا الأمر على الشرط المصدر بـ(لما) يشير إلى سرعة ما يعتري النساء من حزن وجزع إذا ما نزل بهن أمر ليس لهن رغبة فيه .

ويأتي كلامها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[1] في صورة الإخبار إلا أنه خرج إلى معنى التحسر والتحزن على ما فاتها من أمر كانت ترجو حصوله، وهو أن يأتي مولودها ذكرا، ثم هو أيضا يحمل معنى الاعتذار حيث إنها بَنَتْ نذرها على كون ما في بطنها ذكرا، فخاب ظنها وأصبحت الآن غير قادرة على الوفاء بنذرها على أتم وجه وأحسنه، ومن الواضح أن نفسية تلك المرأة قد تغيرت بعد وضعها حيث تحولت من نفس يملؤها الأمل في تحقق ما كانت تريده وتتمناه إلى حسرة بسبب تبدد آمالها، فاتجهت إلى ربها تبثه أسفها وحسرتها على فوات مقصودها من وليدها، فهي في معية الله قريبة منه في كل أحوالها؛ لذا أعادت نداءها لربها مستعملة لفظ (رب) بكل ما يحمله من معنى الرعاية والتربية، وحذفت أداة النداء، وياء المتكلم، وهذا يدل على أن الله مازال في قلبها قريبا، وذكره على لسانها موجود وإن لم يتحقق لها ما كانت تتمنى، فعمدت إلى تكرار لفظ (رب)؛ لتؤكد هذا الشعور النفسي، وتقويه في نفسها، كما أن إظهار لفظة (رب)؛ مناسب لسياق الاعتذار الذي يقتضي إظهار اسم المعتذر إليه وتكراره، رجاء واستمالة واستعطافا .

ومجيء كلامها مصدرا بالتأكيد (إني) يوحي بأن بالها قد شُغل بنذرها، وظلت طوال مدة حملها تمني نفسها بمولود ذكر وفاء لنذرها، حتى إذا ما أتى المولود أنثى وكان على خلاف ما توقعته كاد الشك أن يقع في نفسها لينكر ما رأت عيناها، فخاطبت نفسها بطريق التأكيد؛ لتزيل هذا الشك، يقول الإمام عبد القاهر "واعْلَمْ أنها . أي (إنَّ) قد تَدْخلُ للدلالة على أنَّ الظنَّ قد كان منكَ أيُّها

(١) جملة ""قالت"" جواب شرط غير جازم، وجملة النداء وما في حيزها في محل نصب مقول القول، وجملة ""إني وضعتها أنثى "" لا محل لها جواب النداء..

المتكلِّمُ في الذي كان أنَّه لا يكونُ ... فتجعلُكَ كأنك تَردُّ على نفْسِك ظَنَّكَ الذي ظنَنْتَ، وتُبيِّنُ الخطأ الذي توهَّمْتَ [١]، وربما يعود التوكيد إلى "الاعتناء والمبالغة في التحسر الذي قصدته وبيان أنه صادر عن قلب كسير وفؤاد بقيود الحرمان أسير"[٢]، وهذا يشير إلى أن طبيعة النساء المبالغة في الجزع متى حل بهن، وبهذا يكون هذا التعبير الموجز قد كشف عما نزل بتلك المرأة من " روع وكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الحكم، ثم تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثم التنقل إلى التحسير على ذلك، فلذلك أودع حكاية كلامها خصوصيات من العربية تعبر عن معان كثيرة قصدتها في مناجاتها بلغتها"[٣] .

وتصدير الكلام بالتأكيد يتناسب مع طبيعة النساء حيث إنهن إذا وقع منهن الحزن والتحسر بالغن فيه؛ لذا أظهر النظم مزيدا من تحسرها بالتصريح بضمير المؤنث في قولها:(وضعتها) فالتأنيث هنا " للمسارعة إلى عرض ما دهمها من خيبة الرجاء وانقطاع حبل الأمل"[٤].

كما أن النظم أعاد لفظة (وضعتها) في قولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ مع أن ما يتبادر إلى الذهن أنها لوقالت: (رب إنها أنثى) تعويلا على قوله: (فلما وضعتها) لكان أخصر، إلا أن النظم ذكر هذه اللفظة حرصا على تصوير تلك اللحظة التي تلاشت فيها آمالها، وتبددت فيها أحلامها، فهي نقطة تحول وتغيير في حالتها النفسية، كما أن فيه دلالة على انشغال بالها بنذرها فحرصت من لحظة الولادة على معرفة نوع جنينها.

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ): ٣٢٨، تحقيق : الشيخ/ محمود محمد شاكر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) ـ روح المعاني : ٢ / ١٣٠ .

(٣) ـ التحرير : ٣ / ٢٣٣ .

(٤) روح المعاني : ٢ / ١٢٩

ومجيء (أنثى) حالا من الأمور التي تكشف عن أن ما حل بها جاء على خلاف ما توقعته ومنت نفسها به، وهي لم تتبين ذلك الأمر إلا لحظة الوضع، وبهذا تكون المرأة قد رسمت بألفاظ قليلة صورة كشفت عما نزل بها، وما باغتها دون أن تصرح بأن ما وقع لم تكن تريده، وفي هذا تأدب مع ربها وإشارة إلى رضوخها لقضائه تعالى.

وفي قولها:﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ خبر خرج عن أصل معناه، فهي تحدث من علم ما في بطنها قبل وجوده، لهذا يكون المراد بهذا الإخبار التعريض بمولودها وبيان أنه لن يصلح للوفاء بنذرها؛ لأن الأنثى في عرفهم لا تصلح لخدمة المسجد ولا القيام على شئونه، كما أن كلامها يحمل معنى الاعتذار لخالقها.

ولما كان هذا الاعتقاد قد وجد لقصور علمها بما في الغيب، وعدم اطلاعها على مكانة مولودها، فقد أتى النظم باعتراض بين كلامها يقرر أن علمه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يأذن به لأحد، وعليه فإنه لايعلم أحد حقيقة تلك الأنثى إلا هو فقال: ﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ وفيه "تعظيمٌ لموضوعها وتفخيمٌ لشأنه وتجهيلٌ لها بقدره "[1]، وفيه لمحة تربوية؛ حيث إنه يجب على من فوض أمره إلى الله في أي أمر أن يرضى بقضائه، فالخير فيما اختار وقدر، وإن رأى الإنسان في ظاهره الشر؛ لهذا عبر بأفعل التفضيل (أعلم) الذي يقتضي العلم بتفاصيل الأحوال والإحاطة بشئونها، أكثر من أي أحد ؛ لهذا حذف المفضل عليه ليفيد العموم.

(١) إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٨ .

وقريء:﴿والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتُ﴾" برفع التاء[1]على تقدير أنها حكاية كلامها، وقد جيء بالجملة على طريقة الخبر الابتدائي الخالي من المؤكدات لغرض إفادة الحكم، كما أن السياق لا يحتاج إلى تأكيد لتيقنها بأن الله عالم بحالها.

والفائدة من هذا الكلام أنها لما قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى، فأزالت الشبهة بقولها: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتُ ﴾ وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام"[2]، وقد يكون هذا القول قد صدر منها على سبيل الاستدراك والتسلية، لأنها لما وضعت أنثى خيل لها أن مولودها لا يصلح لنذرها، مما ساقها للتحسر والحزن على فوات الخير الذي أرادت فعله، إلا أنها راجعت نفسها وعلمت أن الغيب لا يعلمه إلا الله، والخير بيده يعطيه متى شاء لمن شاء، لهذا استوقفت نفسها وقطعت كلامها وعادت لرشدها وأرجعت العلم لله فهو الذي يعلم أن مولودها يصلح لنذرها أو لا.

واستعملت أسلوب التفضيل مع حذف المفضل عليه؛ لتشير إلى أن علمه . سبحانه . قد أحاط بكل شيء، و فاق كل علم، وأتى اسم التفضيل مجردا من (أل) ليدل على أن علم الله – تعالى– مطلق، وأنه موصوف بالكمال، وإن كان غير الله – تعالى– قد يعلم بعض علم ، لكنه يفوته علم كثير ويخفى عليه مكنونه . وفي هذا القول قمة التسليم والإذعان لتدبيره . سبحانه . وزرع للثقة في نفسها؛ لهذا فإن امرأة عمران لم تمنع مريم عن القيام بخدمة بيت الله بل دفعتها لهذا العمل، وكأن لسان حالها يقول: إن عَلِم الله فيها الخير استعملها لخدمة بيته، وإن علم فيها غير ذلك ردها عن هذا العمل.

---

(١) قراءة ابْن عَامِرٍ وَيَعْقُوب النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ) تحقيق: علي محمد الضباع (المتوفى١٣٨٠ هـ):٢/ ٢٣٩، المطبعة التجارية الكبرى.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) : ٨ / ٢٠٤ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

واستعمل النظم (ما) دون (من)؛ ليلائم جهل امرأة عمران بقدر تلك المولودة ومعلوم أن (ما)" كثيرًا ما يؤتى بها لما يجهل به "[١].

وعلى جعل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ من كلام امرأة عمران يكون في الكلام التفات من الخطاب في قولها:﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ إلى الغائب في ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ وهذا الالتفات مكنها من إظهار اسم الله المبارك إشارة إلى "أن يهبها من كماله ويرزقها من هيبته وجلاله"[٢]، كما أن مجيء اسم الجلالة بدلا من ضمير المخاطب فيه " إظهار لغاية الإجلال فيكون ذلك منها اعتذارًا إلى الله . تعالَى . حيثُ أتت بمولود لا يصلُح لما نذرته من السدانة"[٣]، ويرى الإمام أبو حيان أن هذا الالتفات غرضه التسلية عن الذّكر[٤]، فهي قد حولت كلامها من الخطاب للغيبة؛ كي تحدث نفسها لعلها تنفس بعض همومها وتروح عن صدرها، وهذا حال المكظوم المهموم تجده يحدث نفسه، ويذكر في حديثه ما يحقق له زوال الكرب والهم، فتلك المرأة الصالحة لم تجد شيئا أعظم من اسم الجلالة كي تتسلى به في مصابها؛ لما فيه من هيبة وعظمة يستحضرها الإنسان عند مصابه فتنسيه عظيم ما ألم به، ويفتح أمامه باب الرجاء ليحقق ما فاته، خصوصا وأنها وحيدة قد فارقها زوجها وليس لها من الأبناء من يخفف عنها.

كما أن الالتفات فيه أيضا جذب النظر إلى التأمل في معنى لطيف وحكمة إلهية قصدتها تلك المرأة الصالحة رغبة في التسرية عن نفسها، وهو أنه قد يقع في علم الله أنّ هذه الأنثى ستصلح للوفاء بنذرها، ولما كان هذا الأمر من

---

(١) مفاتيح الغيب : ٢ / ١٣٠ .
(٢) نظم الدرر : ٤/ ٣٥٢.
(٣) إرشاد العقل السليم : ٢ / ٢٨ .
(٤) البحر المحيط : ٣/ ١١٧ .

الأشياء التي خالفت أعرافهم كان الموضع خليقا بإظهار لفظ (الله) تنبيها على طلاقة قدرته، وسابق حكمته وتربية إعظامه وإجلاله في النفوس.

وقوله تعالى :﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ قد يكون من كلام الله . سبحانه وتعالى . على جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه، وعلى هذا فـ(اللام) في الذكر والأنثى للعهد، أي فليس الذكر الذي تمنيته أفضل عند الله من تلك الأنثى ، ويكون الكلام بنى على إيجاز الحذف.

وقد يكون قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من جملة كلام أم مريم، أتت به تعليلا لتحسرها وتحزنها وتأكيدا لاعتذارها، لا لتقرير واقع وإثبات حقيقة، أي ليس جنس الذكر الذي يصلح للنذر كالأنثى التي لا تصلح، ومعلوم أن أحد الجنسين لا يصلح لكل ما يصلح له الآخر، وعلى هذا المعنى تكون (اللام) في الذكر والأنثى في هذه الآية للجنس .

ولاحظ أن امرأة عمران ما زال يسيطر على وجدانها وشعورها اعتقاد أفضلية الذكر على الأنثى في موضع نذرها، حتى إنها لاتكاد تتخلص من هذا الاعتقاد حتى يراودها مرة ثانية، ويظهر ذلك في تقديمها لفظ الذكر على الأنثى؛ لأن الذَّكر كان هو مقصدها وما علق بذهنها فقدّمته في الذِّكر؛ وكان هو المرجو المأمول لتحقيق نذرها فكان أسبق إلى اللفظ في كلامها، كما أن تقديمها للفظ الذكر يتناسب مع التحسر والتحزن المستفاد من قولها:﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ فإن تحزنها ذلك إنما هو لترجيح الذكر عندها على الأنثى.

ويأتي قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾؛ لأن من يسمع ما صدر من تلك المرأة من تحسر على مولودتها، يشعر بأسفها على عدم إنجابها ذكرا، مما قد يولد في نفس السامع اعتقادا أنها سترجع عن نذرها، فقالت :﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾؛ لتظهر شعورها وترد هذا الاعتقاد، وتبين أنها على الرغم من هذا الواقع المفاجئ إلا أنها غير راجعة عن نذرها، بل سيأخذ النذر طريقه إلى حيز التنفيذ؛ لهذا صدرت قولها بالتأكيد لتكشف عن رغبتها القوية في تحقيق نذرها وإمضاء عزمها، وإن كان ظاهر الأمر يدل على عدم تحققه، ويدل أيضا على

ذلك تصريحها بالتسمية، وبيان أنها اختصت بهذا الفعل دون غيرها لكون أبيها قد مات وهي حامل؛ لهذا قدمت" المسند إليه للتخصيص،... وفي ذلك تعريض بيتمها استعطافا له . تعالى . وجعلا ليتمها شفيعا لها"(١)، كما أن الاسم الذي اختارته يدل على ما تملكها من إصرار في التقرب بمولودها إلى ربها . سبحانه تعالى ـ فسمتها (مريم) أي "العابدة أو خادمة الرب"(٢) " تفاؤلا لها بالخير، وتقربا إلى الله . تعالى .، وتضرعا إليه بأن يكون فعلها مطابقا لاسمها، وأن تصدق فيها ظنها بها"(٣)، وفي هذا إشارة إلى حرص الأمهات على حسن تسمية الأبناء؛ لأن "الاسم له تأثير إيجابي على شخصية الطفل وسلوكه وطموحاته"(٤).

ولما كانت تلك الأم الصالحة تمتلك عقلية إيمانية ومنهجا ربانيا، علمت بتجربتها أن المعاصي تأتي من نزغ الشيطان، فلجأت إلى ربها قائلة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم﴾؛ إيماء إلى الخوف والقلق على الابنة، وإعلانا منها أنها لا حول لها ولا قوة، وأنها هي ومولودتها ضعيفتان ضعفًا يحتاجان معه إلى من يدفع عنهما مضرة الأعداء، ومجيء كلامها مصدرا بالتأكيد، يشعر بإلحاحها الشديد على قضاء حاجتها، فجاء الكلام مطابقا لما وقع في نفسها من شعور، ومعلوم أن المرأة تعلم ضعف نفسها، فلما رأت مولودتها أنثى، تضاعف خوفها؛ لأنها جمعت بين ضعفين ضعف اليتم وضعف الأنوثة.

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ١٣١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): ٤ / ٦٨ ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

(٣) البحر المحيط: ٣ / ١١٨ . بتصرف.

(٤) تربية الأبناء والأولاد في ضوء القرآن والسنة، خالد عبد الرحمن:٨٥، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ .

كما أنها عبرت بالفعل المضارع (أعيذها) لقصد ديمومة الاستعاذة وتجددها، فهي تعرف أن الشيطان له ضرر كبير وخطر عظيم وأنه لن يترك مريم وطاعتها، بل سيبذل قصارى جهده في ردها عما أرادته لها أمها من كونها عابدة خادمة في بيت المقدس، وسيعيد الكرة تلو الكرة؛ لهذا لجأت إلى ربها ليجيرها بحفظه، كي يطابق فعلها اسمها ، وقالت (بك) لإفادة الاختصاص، لأنها تريد مطلوبها من ربها فهي تعلم أن لن يجيرها من الشيطان ووساوسه إلا رب العالمين ـ سبحانه..

ومن الملاحظ أن جلّ اهتمام امرأة عمران كان بمولودتها، فأتت بالمعاذ به بعد ذكرها الضمير العائد على مريم فقالت: (أعيذها بك)؛ إبرازا لكمال العناية بها، وبيانا بأن ابنتها هي المرجوة وقت الدعاء، وهذا الاهتمام يوحي بخوفها الشديد على بنتها وهذا الخوف منبعث من طبيعة علاقة المجتمع بالمرأة خصوصا أنها ستواجه المجتمع وحيدة فريدة لا سند لها ولا رفيق .

ثم عطفت على (أعيذها) (ذريتها)، وفي هذا "إشعار بما أوتيته من علم بأنها ذات ذرية، فكأنها نطقت عن غيب من أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ مما لا يعلمه إلا الله "[1]، وقد يكون ذكرها الذرية من باب الاستبشار ببقائها وطول عمرها وبقاء نسلها، وهذا الأمر يظهر عناية الأم بمولودها، ويضع أمام الأمهات نموذجا للأمومة الحق، لتتعلم كل أم ما يجب عليها من حقوق تجاه أولادها منذ أن تعلم بوجوده جنينا في بطنها.

ومن ينظر في الآيتين اللتين ورد فيهما كلام امرأة عمران يلاحظ أنهما خلتا من علامات الوقف عدا علامة (صلي) التي تدل على جواز الفصل والوصل، إلا أن الوصل أفضل من الوقف، وهذا يوحي بالصلة القوية بين امرأة عمران وربها ـ عز وجل ـ ويعكس روحا تلهج بالدعاء، وتختلج بالانفعالات، مما يؤكد أن قلب الإنسان إذا استشعر حضرة ربه وهو يناجيه انثال الدعاء كالسيل

(١) نظم الدرر : ٤ / ٣٥٥ .

المتدفق، لا يمنعه مانع، فلم تهدأ كلماتها ولم تنقطع أنفاسها إلا بطلبها قبول طاعتها، مازجة هذا الطلب بثناء على الله، ثم يستأنف النظم سرد أحداث القصة، عارضا طرفا آخر من كلامها يحمل أسى وخيبة أمل على ظنها فوات فرصة، كل ذلك ممزوج بإصرار على إنفاذ نذرها فلا تجد أنفاسها على الرغم مما حل بها متقطعة بل لا يزال التدفق مستمرا والمناجاة متواصلة .

المبحث الثاني
كلام مريم ـ عليها السلام ـ

قص القرآن الكريم ما أتى على لسان السيدة مريم . عليها السلام . من كلام في سياقين، أولهما سياق الحديث مع سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ، وثانيهما: ما ورد في سياق الحديث مع الملائكة وتفصيل القول فيهما على النحو الآتي:

المطلب الأول
ما ورد من كلام في حوارها مع سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ

وقد ورد ذلك في موضع واحد في سورة آل عمران وذلك في قوله:﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (سورة آل عمران :٣٧)

عرض السياق والمعنى :

هذه الآية هي امتداد لسياق الآيات السابقة، وفيها بين الله ـ سبحانه ـ أنه تقبّل البتول تقبلا حسنا، كما بيّن كفالة سيدنا زكريا لها، وما امتن الله عليها به من رزق حسن مستمر .

من بلاغة كلام مريم في حوارها مع زكريا ـ عليه السلام ـ :

يقول تعالى:﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (سورة آل عمران :٣٧)

يقص القرآن في هذا السياق جانبا من جوانب كلام مريم، مع سيدنا زكريا ـ عليهما السلام ـ، وجاء كلامها إجابة عن سؤال وجهه سيدنا ـ زكريا عليه السلام . الذي كان شديد الحرص عليها، والاهتمام بها بدليل قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ**﴾، فـ(كلما) ظرف شرطيّ متعلّق بالجواب (وجد) يقتضي التكرار ويدل على فرط اهتمامه ـ عليه السلام ـ بها وحرصه على تعهدها؛ لرعاية مصلحتها وتفقد شئونها، ويدل على هذا الاهتمام تقدم

الجار والمجرور (عليها) على الفاعل (زكريا) وفي ذلك إظهار لكمال العناية بأمرها.

وأثناء تفقده لحالها وجد هناك أمرا عجيبا فأسرع للسؤال عنه حيث:﴿**وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**﴾ كثيرا متنوع الأصناف، بدلالة مجيء (رزقا) نكرة، وهذ الرزق لا يعرف زكريا . عليه السلام . مصدره على الرغم من أنه هو الوحيد الذي كان يتعهدها بالرعاية، بل قيل: "إنه كان يغلق عليها سبعة أبواب، ويخرج، ثم يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء"[(١)]، وهذا ساقه للتعجب والدهشة والتساؤل عن مصدر هذا الرزق، فقال لها :﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ استئنافٌ مبني على السؤالِ وهو ما يسميه علماء البلاغة بشبه كمال الاتصال، وفي استعمال كلمة (أنى) ما يشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة: من جهة الزمان أنه ليس زمانه، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه، ومن جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله"[(٢)] ، وفي استعمال اسم الإشارة (هذا) ما يدل على أن زكريا . عليه السلام . وجد عندها طعاما مألوفا له إلا أنه كان يلاحظ وجود طعام آخر لم يحضره لها، وهذا ما أثار عنده الدهشة فعرَّفه بالإشارة ليميزه عن غيره.

وجاءت إجابة مريم . دالة على قوة إيمانها وصفاء نفسها فقالت له دون تردد أو فاصل: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا دليل على حضور إجابتها وسرعة ردها على سؤال زكريا ـ عليه السلام ـ الذي كان يقوم على رعايتها، فهي لم تتلعثم، ولم تتردد بل كانت واثقة في ردها، وهذا يكشف عما ملأ قلبها من إيمان، وصدرت كلامها بالضمير (هو) ولم تصدره باسم الإشارة (هذا) فيكون مطابقا لسؤال زكريا ـ عليه السلام ـ ؛ وذلك لأنها في إجابتها لم تنظر إلى الرزق الحاضر

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (المتوفى: ٣١٠هـ): ٦ / ٣٥٣ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر : مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

(٢) نظم الدرر: ٤ / ٣٦١ .

أمامها فقط والذي رآه سيدنا زكريا . عليه السلام. وسأل عنه بل نظرت إليه وإلى غيره مما رزقت به من قبل كما وضعت في اعتبارها ما سيأتيها في المستقبل وما غاب عن زكريا ـ عليه السلام ـ فلم يسأل عنه، وكأنها أرادت أن تنبه سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ أنّ ما غاب عنه من ألطاف الله بها أكثر مما رآه وعاينه، وهذا يناسبه التعبير بضمير الغائب.

كما أن ذكر الضمير (هو)؛ فيه تنبيه من أول الأمر على فخامة مضمون هذا الرزق، كما أن فيه مزيدا من التحقيق والتقرير؛ إذ إن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل، فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه، فيتمكن في نفس المخاطب عند وروده فضل تمكن .

ولما كان هذا الأمر الذي سأل عنه زكريا ـ عليه السلام ـ من الأمور الخارقة للعادة التي يعجز بنو البشر عن فعل مثلها، أضافت ذلك إلى الله . سبحانه وتعالى . فقالت: ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾ فالإضافة هنا خرجت بالاسم المضاف من معنى التعريف إلى دلالة التعظيم، كما أن التصريح بـ(عند) دون أن تقول: (هو من الله)؛ لبيان أن الابتداء المستفاد من (من) هنا حقيقة، وليس مجازا فهي أرادت أن تخبر سيدنا زكريا . عليه السلام . أن هذا الرزق لا فضل لأي مخلوق فيه، فلقد أتى إليها من عند ربها بقدرته النافذة دون واسطة، ولو أنها قالت: (من الله) لاحتمل أن يكون من الله بواسطة أحد من عباد الله، أي: سخر لها من عباده من يأتيها بهذا الرزق ، ولكن لما كان هذا الفعل من خوارق العادات لا يجري على يد البشر ناسبه أن يكون ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾.

وفي كلامها لم تقل: هو من عند (ربي) أو (إلهي) وإنما استعملت اسم الجلالة (الله) الذي هو أعم من غيره؛ وكأنها تريد أن تومئ إلى أن هذا العطاء الوافر والرزق الكثير ليس خاصا بها، وإنما هو متاح لجميع عباده يعطيه الله من شاء منهم بغير عد ولا إحصاء، وبهذا يكون في استخدامها اسم الجلالة تنبيه لكل العباد إلى الإقبال على الله . سبحانه وتعالى . وحثهم

على أن يسألوه من فضله الواسع وخزائنه التي لا تنفد، ويؤكد ذلك فاصلة الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ .

ومن المعلوم أن إجابة مريم قد اكتملت عند قوله: ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾، حتى إنها لو سكتت عند هذا الحد ما طلب منها سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ الزيادة في القول، إلا أن الصالحين دائما ما تجدهم يستغلون المواقف لشحذ همم غيرهم، ويوظفون الأحداث؛ للتنبيه على أفضال الله التي قد تغيب عن بعض بني البشر، ولما كانت مريم عابدة، فلم تدع هذا الحدث يمر حتى توظفه في بيان بعض أفضال الله، فأسرعت قائلة ودون فاصل بين كلامها السابق ببيان حقيقة مهمة وهي أن هذا الرزق غير موقوف عليها، فقالت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، وهذا تعليل لكون الرزق من عند الله، أتى في صورة التذييل؛ للدلالة على أن رزق الله غير متوقف على الأسباب المألوفة، وصدرت هذا التأكيد بـ(إِنَّ) ؛ لأن نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ قد صدر عنه ما يشبه الإنكار حينما صدر منه السؤال إلى مريم ﴿**قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا**﴾ فلهذا استوجب الكلام التوكيد؛ ليزيل ما قد يكون قد علق في ذهنه من شك .

وكررت السيدة مريم ـ عليها السلام ـ اسم الجلالة في قولها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾؛ لتظهر اللفظ الكريم في كلتا الصورتين؛ فيحدث بمدلوله وقع عظيم في قلب من يسمعها فيستحضر عظمة المنعم فيزول لديه الشك، ومعلوم أن الاسم الظاهر له في النفس دلالة لا يستطيع الضمير أن يفعلها، كما أن تكرار اسم الجلالةعلى لسان البتول يشعر بأنها تتلذذ بذكره؛ ويدل على الاسترواح باسم الجلالة وإسعاد نفسها بجريانه على لسانها، ومعلوم أنها اتخذت من ربها أنيسا وجليسا في وحدتها، والعشاق يتلذذون بذكر أسماء من يحبون .

كما أن إظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، بعد ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾ فيه تأكيد لما سبق ذكره وهو رغبة مريم في

بيان أن هذا الرزق ليس خاصا بها، بل هو رزق مطلق من الله . سبحانه وتعالى .؛ لذا فقد أعادت اسم الجلالة مرة ثانية في قولها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾؛ للتأكيد على هذا القصد والتنبيه عليه، وبهذا تكون السيدة مريم . عليها السلام . قد حققت في كلامها معنى قصدته من وراء إظهار اسم الجلالة ، وهو الإشارة إلى استقلال جملة (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ...) بمعنى جديد وعدم دخولها في حكم سابقتها، وكأنها تنوه أن كل جملة تحمل معنى مستقلا ومدلولا مختلفا، وهذا يحتاج إلى إظهار اسم الجلالة ولا يتحقق بعود الضمير، فإذا سمع السامع كل جملة حصل له علم معنى مستقل؛ لهذا فقد عبرت بالفعل المضارع (يرزق) الدال على استمرار الرزق وتجدده، فعطاء الله ليس موقوفا على أحد بعينه، وهذا يتناسب مع العموم المفهوم من قولها :﴿**مَنْ يَشَاءُ**﴾، وكما أنها ـ أيضا ـ تحمل معنى التأدب مع الله وبيان أن رزقه لا يخرج من مشيئته، وقولها: ﴿**بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾" يشعر بأنه عطاء متصل، فلا يتحدد ولا يتعدد، فهو رزق لا متعقب عليه "[1]، وفي تنكير (حساب) ما يدل على عموم النفي، أي: أن الله يعطي عطاء واسعا دون أدنى محاسبة.

ومن الوضح أن القرآن الكريم لم يظهر في هذا المشهد من شخصية مريم إلا جانب الصلاح والتوكل على الله، وهو أمر يشترك فيه الرجل مع المرأة، ولا يختص به جنس عن الآخر، ولعل النظم الحكيم قد اكتفى بهذا الجزء من حديثها في هذا المشهد؛ ليوجه على لسانها رسالة ينتقل من خلالها إلى قصة زكريا . عليه السلام ، ولعل هذه الرسالة تتضمن إشارة إلى مكانة المرأة في المجتمع؛ حيث إن زكريا . عليه السلام . وهو نبي الله وشيخ كبير، لم يتردد ولو للحظة واحدة أن يتعلم من طفلة صغيرة، فأسرع إلى ربه طالبا منه الذرية الطيبة.

(١) ـ نظم الدرر : ٤ / ٣٦٣.

المطلب الثاني

ما ورد من كلامها في حوارها مع الملائكة

وقد ورد ذلك في موضعين من القرآن أولهما في سورة آل عمران، وثانيهما في سورة مريم وبيان ذلك على النحو الآتي:

١ـ موضع سورة آل عمران

قوله تعالى :﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران:٤٧)

٢ـ: موضع سورة مريم

قوله تعالى :﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا۝قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا۝ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ سورة مريم(١٨: ٢٣)

السياق والمعنى:

جاء هذا الكلام من مريم . عليها السلام . في سياق تبشير مريم بحملها بعيسى ـ عليهما السلام ..

ثانيا: من بلاغة كلام امرأة عمران في حوارها مع الملائكة:

للوقوف على خصائص كلام مريم . عليها السلام . لابد من معرفة من تخاطب في السياقين، والوقوف على ما اختص به كل سياق عن غيره، وأول ما يطالعنا في هذين السياقين أن ظاهرهما يوهم باختلاف المتحدث مع مريم، على الرغم من أنهما يقصان مشهدا واحدا، ففي سورة آل عمران صرح النظم بأن القائل الملائكة فيقول: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، وصرح في سورة مريم بأن القائل هو جبريل . عليه السلام . فيقول:﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، والحق أنه لا تعارض بين الآيتين، لأن المتحدث في كلا الموقفين كان جبريل . عليه السلام . فقد صرح به في سورة مريم، وعبر عنه في سورة آل عمران بالجنس الذي ينتمي إليه من باب التعبير بالكل وإرادة الجزء، كما أن جبريل قد يكون

نزل ومعه زمرة من الملائكة لتبشير مريم بحملها؛ لأنه قيل:"إن جبريل لا ينزل لأمر إلا ومعه جماعة من الملائكة"[1]، والمتأمل لسياق سورة آل عمران يجد أن النظم قد تحول من ذكر الملائكة إلى لفظ المفرد فحينما تعجبت مريم مما أخبرت به فقالت: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كان الذي تولى دفع هذا العجب وردّ هذا الاعتراض، ملك واحد، لا جماعة الملائكة كما جاء فى قوله تعالى: ﴿قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاء﴾(سورة آل عمران: ٤٧)

ولكن إذا كان جبريل هو من قام بالفعل فلم خص الملائكة بسورة (آل عمران) وجبريل بسورة (مريم)؟

من المعلوم أن سورة مريم هي المتقدمة في النزول فناسبها التفصيل والإيضاح؛ لهذا فقد أفصحت بأن من كلمها هو جبريل، وعبر عنه بقوله: ﴿رُوحَنَا﴾؛ ليتناسب مع العمل الذي أرسل من أجله وكلف به وهو إلقاء روح التكوين للنسل في رحم مريم . عليها السلام . مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ (سورة الأنبياء : ٩١).

وعبر النظم بلفظ الملائكة في سورة (آل عمران)؛ لنفطن إلى أن الصوت في الحدث – كالإنسان – له جهة يأتي منها، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات، وكأن هناك ملكا في كل مكان، فالمتكلم هنا هو جبريل . عليه السلام .، ويأتي صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا؛ لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة[2]، كما أن النداء هنا واقع في سياق الاصطفاء، وهذا يناسبه التعبير بالملائكة والتعبير أيضا بالبشرى .

وصرحت الملائكة في سورة آل عمران بنداء مريم باسمها﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ مع أن هذا النداء تكرر لها من

١. البحر المحيط : ٣ / ١٤٦ .
٢. تفسير الشعراوي : ٣/ ١٤٥٢.

الملائكة مرتين قبل تلك المرة؛ وذلك لإدخال الأنس إلى نفسها والطمأنينة إلى قلبها؛ لأن الملائكة في هذا المشهد تحمل لها نبأ عظيما وهو ولادتها لرسول من غير أب؛ كما أن قصتها في سورة (مريم) افتتحت بقوله :﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ**﴾؛ ليرسم بمدلول هذا الاسم للمتلقي في كلا الموضعين صورة تلك " الفتاة العذراء، القديسة، التي وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد، ولا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم"[1]، فيزيل أي شك في طهرها وعفتها قد يتسرب لذهن أحد عند سماع مقولة الملائكة، ويقوي من هذا الأمر أن النظم في سورة آل عمران ذكر اسم الجلالة في قول الملائكة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ**﴾، واستعمل البشرى، ومعلوم أن التبشير إخبار المرء بما يسره، وفي سورة مريم صرح بأن الإرسال من عند الله فقال: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ وفي هذا تشريف وتكريم، وزاد من هذا التكريم تقدم الجار والمجرور (إليها) الذي أفاد التخصيص، والإضافة في قوله:﴿**رُوحَنا**﴾ للتشريف والتكريم، وقوله في سورة مريم: ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ فيه إشارة إلى كمال عصمتها؛ إذ هي في مكان منعزل ويخرج عليها آدمي شابّ حسن الخلقة أمرد وضيء الوجه مشرق المُحيا سويّ الخلقِ كامل البُنية إلا أنها لم تفتن به، بل ظهر منها من الورع والعفاف مايدل على طهرها ونقائها حيث قالت: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾، فهي حينما رأت جبريل . عليه السلام- في هذه الصورة بادرته قبل أن يكلمها؛ إنكارا عليه مجيئه لها في ذلك المكان، وتخويفا له من الله؛ ويصور النظم من خلال كلام مريم حالة الخوف التي انتابتها حين فاجأها الملك في خلوتها، فأصبغ كلامها بهزة تصور مشاعرها، وتكشف عن مخاوفها، فحرص

١- في ظلال القرآن سيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ) : ٤ / ٢٣٠٥ . دار الشروق – بيروت– القاهرة، السابعة عشر – ١٤١٢ هـ .

على أن يخرج كلامها بصورة ذات وضوح سمعي عن طريق تكرار حرف النون في كلامها، ومعلوم أن النون تمتاز بوضوحها السمعي المميّز فهي تعتبر " أوضح الأصوات الصامتة في السمع"(١)، كما أنها على مستوى الإيقاع الإيقاع تمثل " رنة تحدث قوة إسماع حاملة ترددا زمنيا طويلا"(٢)، وهذا الوضوح السمعي يتناسب مع موقف مريم وما أرادته من إثارة مشاعر التقوى في نفس المخاطب كي لا يمسها بسوء.

ومن الملاحظ أن التعوذ خرج منها دون فكر طويل بل خرج بشكل عفوي؛ وذلك لأن الأقوال المتمكنة من الباطن تخرج عفوا عن غير تكلف متى استدعاها المقام.

ولشدة حرصها على النجاة منه فقد صدرت كلامها بتأكيد يظهر ما بداخلها من حرص شديد على التخلص من أي مكروه قد توهمته من هذا المجيء، فحاولت بتأكيدها نقل هذا الحرص من داخلها إلى هذا المتلقي؛ ليشعر بضعفها وعجزها، عساه أن يتركها دون أن يلحق بها مكروها أو سوءا، فمعلوم أنه من عادة النساء وخصوصا الأتقياء منهن إذا تعرضن لمكروه أو سوء بادرن بطلب الغوث عن طريق الصراخ بغية النجدة والإغاثة، وهذا ما فعلته مريم، إلا أنها اختلفت عن بنات جنسها بأن جعلت استغاثتها بربها دون عويل أو صياح، وهذا يدل على حزمها وخلوص تعبدها لله والتجائها إليه بحيث لا تركن إلى سواه .

واستعملت الفعل (أعوذ) بصيغة المضارع؛ ليدل على أنها متمسكة بهذه الاستعاذة مجددة إياها واثقة في نتائجها؛ لهذا استخدمت صفة (الرحمن) دون

١ـ الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل:١٧٣،دار صفاء للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،١٤١٨هـ، ١٩٨٨م

٢ـ من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي،أحمد كشك :١٣، دار السلام،١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

غيرها من صفات الله؛ لأنها في موقف بالغ الصعوبة يتطلب رحمة الله بها لتخلصها من عواقبه المؤلمة التي قد تمس شرفها وعرضها فأرادت "أن يرحمها الله بدفع من حسبته داعرا عليها، وفيه تذكير لمن رأته بالرحمة ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه أو مبالغة للعياذة به . تعالى . واستجلابا لآثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها"[١].

وتختم كلامها بأسلوب شرط وهو قوله تعالى :﴿**إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾؛ ليكون متمما لكلامها داعما لما تقدم من كلام، وقد اشتمل هذا الشرط على مقومات تتناسب مع السياق، إذ صدر بأداة الشرط (إن) المؤذنة بالشك، وهذا لأمور منها: أنه اقتحم عليها عزلتها وسترها وهذا لا يتأتى في الغالب من تقي، وذهب ابن عاشور إلى أن مريم استعملت ما يدل على الشك " لتهييج خشيته"[٢] وعلى ذلك يكون قصدها هو حث من تخاطبه على إثبات خلاف ظنها، وإظهار جانب التقوي فيتركها وشأنها ولا يتعرض لها بسوء؛ لهذا "اجتلبت فعل الكون الدال على كون التقوى مستقرة فيه، وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحث على العمل بتقواه" [٣].

ومن الملاحظ أنها لم تقل:(إن كنت من الأتقياء)؛ لأنه لو أتى بخبر كان جارا ومجرورا لكان "أدل على شدة تمكن وصف التقوى منه مما لو أثبت له الوصف وحده، بناء على أن الواحد يزداد تمسكا بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة؛ لأنه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن

١ـ روح المعاني : ٨ / ٣٩٥ ، التحرير والتنوير لابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ): ١٦/ ٨١، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ.

٢. التحرير والتنوير : ١٦ / ٨١ .

٣. السابق : ١٦ / ٨١ .

التردد في سداد عملها"[1]، وهذا غير مراد في السياق؛ لأن مريم وجدت منه ما لا يدل على تمكن وصفه بالتقوى، بل هي أرادت أن تحيي تلك الصفة فيه.

وحذف جواب الشرط من كلام مريم، أدى إلى إطلاق المعنى وتوسيعه حيث احتمل الجواب المحذوف عدّة معانٍ وتقديرات، الأمر الذي جعل السياق ينفتح لمعان كثيرة كلها محتملة، كما أن فيه إيجازا وإعمالا للذهن مما جعل العلماء يختلفون في تقديره، ويدلي كل واحد منهم بدلوه.

ولعل مريم . عليها السلام . قد سكتت عن الجواب لضيق المقام، فجبريل . عليه السلام . لما رأى منها ما رأى، أسرع بقوله: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ (سورة مريم : ١٩) حتى يبدل فزعها طمأنينة، ولعلها سكتت عما تريده في جوابها من باب تفويض أمرها إلى ربها ، حيث استغاثت به، وذَكّرت من أتى إليها بتقواه، ثم سكتت عن الجواب عالمة أن من كان يرزقها بغير حساب ولا سؤال، سيدبر لها ما فيه صلاحها دون أن تنطق به.

وما كادت البشرى تقرع سمعها حتى انتابتها حالة من الدهشة الممزوجة بعلامات الاستغراب الكاشفة عن ضعف الأنثى، وشدة خوفها من مواجهة المجتمع، وقدم النظم لكلامها بفعل القول الملحق به تاء التأنيث بما تشير إليه من دلالات ضعف، وهذا من شأنه أن يجعل المتلقي متهيئا لسماع صوت أنثوي، وكان أول ما تلفظت به هو استفهاما تعجبيا يحمل دلالات الإنكار، إذ إنها ستلد بلا زواج، ولعل مريم فطنت إلى تلك الحقيقة عندما قالت الملائكة لها : ﴿**اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ فالعادة جرت أن ينسب الولد لأبيه، فلما نسب إليها ساقها إلى التعجب فقالت في سورة آل عمران: ﴿**رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ (آل عمران : ٤٧)، وهذا منها يعد فطنة في التلقي عن الله، وفي سورة مريم قالت : ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ (مريم: ٢٠) ومن الملاحظ أن النظم قد خص كل مقام بما يتناسب مع سياقه،

---

١. السابق : ١ / ٤٢٧ .

ففي آل عمران صدرت كلامها بنداء استعطاف لربها؛ كما أنها حذفت الأداة استشعارا بقربه منها؛ وذلك لأن هذه الآية أتت في رحاب بشرى التطهير والاصطفاء من الله، حيث يقول تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ**﴾، فالسياق هنا يدل على أنها منغمسة في رحاب عطاءات الله، والتبشير بالولد جاء من الله، فما كان منها إلا أن اتجهت إليه بالنداء لإظهار ضعفها والتحسر من شأنها، إذ كيف بها وهي امرأة ضعيفة " أن تلد من غير زواج؟ وماذا تقول للناس؟ ومن يسمع لها أو يصدق قولها؟ وأنّى لها القوة التي تحتمل بها لذعات الألسنة، وغمزات العيون، وهمسات الشفاه؟ إنها تجربة فريدة فى عالمها، لم تكن لامرأة قبلها، فكيف لها باحتمالها، واحتمال تبعاتها؟" [١]، وخاطبت مريم . عليها السلام . ربها . سبحانه وتعالى . ولم تخاطب الملائكة " طرحا للوسائط مبالغة في التضرع وجدا في التبتل"[٢] فالأمر أشد من أن ينقل بواسطة، فطالما أن البشرى من الله فاللجوء إليه هو أخصر الطرق وأنسب السبل.

أما في سورة مريم فلم يبدأ السياق بندائها لربها؛ لأن الذي أتى بالبشارة هو جبريل المتمثل في صورة بشر وعندما أعلن لها البشارة في قوله: ﴿**لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ أسند الهبة لنفسه، فلم تصدر كلامها بنداء ربها؛ لأنها ما زالت في ريبة من أمره غير متأكدة بأنه من الملائكة. [٣]

ومن يدقق في التعبير القرآني يجده يكشف هنا عن نفس نقية فطرت على الطهارة، وجبلت على العفة فهي لا تريد أن تستسلم لهذا الأمر؛ لأنها تعرف خطره وأثره خصوصا على المرأة، فأخذت تجادل وتقدم أسباب عدم تقبلها لهذا

١ـ التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ):٢/ ٤٦٣، دار الفكر العربي – القاهرة.

٢. روح المعاني : ٢ / ١٤٣ .

٣. التحرير والتنوير : ١٦ / ٨١ .

الأمر، وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾ واستعمالها لـ(أنىّ) يدل على شدة حيرتها وكثرة ما جال في ذهنها، ولكن لضيق وقتها جمعت ما دار في خاطرها ووضعته في أداة واحدة تحتمل أكثر من معنى[1]، فأخرجت بها مكنون مشاعرها، وكأنها قالت من أين سيأتي؟، ومن أي وجهة سيحدث لي ؟، وكيف سيكون؟ ، ومتى سيحل بي ؟

والتعبير بالاستفهام دون الخبر فيه مبالغة في البعد عن الريبة، إذ إنه يؤدي دورا في الإقناع وفي العملية الحجاجية؛ نظرا لما يفعله من جلب المتلقي إلى فعل الاستدلال.

واستعملت فعل الكون بعد أداة الاستفهام؛ لأنه يدل على رسوخ الوصف، ويزيد من قوته ويضفي تأكيدا على دلالته، ولما كان الاستفهام الغرض منه التعجب الممزوج بالإنكار فإن فعل الكون قد أكد هذا الأمر ودل على أن التعجب والإنكار صفتان قد ترسختا لديها، بحيث لم تجد لنفسها أي مدخل لقبول هذا الأمر وذلك لعظمه وارتقائه فوق المستوى البشري والقانون الإنساني؛ لذا قدمت عليه الجار والمجرور(لي) للتخصيص، وكأنها تقول: إن هذا الأمر متى كان لي خاصة فهو بالمحال لعدم توفر أسباب الإنجاب فهي

١ـ وقفت على خمسة معان لها ذكرها العلماء هي : أـ (متى) وورد عليه قوله تعالى : ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البَقَرَة: ٢٢٣) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد ابن الأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ) :٤ /٢٧٦، تحقيق: محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م .

(ب) (مِن أَيْن) وورد عليه قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾. (سورة سبأ: ٥٢) السابق:١٥ / ٣٩٦.

(ج) (كيف) ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ (آل عمرَان: ١٦٥)

(د) (من حيثُ) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن،: ٤ / ٦١٦ .

(هـ) (من أيّ وجهٍ) السابق : ٤ / ٣٩٤.

لم تتزوج، ولا ترغب الآن في الزواج ، وليست بغيا ، كما أن تنكير (غلام) و (ولد) أفاد العموم .

ومن الملاحظ أن مريم في سورة آل عمران عبرت بلفظ (ولد)، وفي سورة مريم عبرت بلفظ (غلام)، كما أنها زادت في سورة مريم (ولم أك بغيا)، وهذا يؤدي إلي تكامل المشهد، ويعطي صورة كاملة للحدث، ومعلوم أن النظم الحكيم يذكر في كل سورة ما هو أليق والأولى بمخصوص منزلها، فينقص في القصة الواحدة ما يستوفيه في موضع آخر ويحدث تداولا في الألفاظ لاختلاف السياقات، كذلك الحال في كلام مريم، ففي سورة آل عمران استعمل النظم على لسان مريم لفظة (الولد) دون (غلام)؛ لأن لفظة (ولد) توحي بصورة الولادة وهي مناسبة لجو السورة والسياق الذي وردت به، أما مناسبتها للسورة فإن سورة آل عمران ورد في مطلعها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ (من الآية : ٦) فالتصوير في الأرحام يتناسب مع ظل الولادة التي يوحي بها لفظ (ولد)، كما أن سورة آل عمران يدور عمادها حول دحر معتقدات النصارى وما وقع عندهم من ضلالات وادعاءت في ألوهية عيسى . عليه السلام . فناسب السياق ذكر لفظ (الولد) بما يوحي به من مشاهد الولادة للقضاء على هذا المفهوم الخطأ، وبيان أن عيسى . عليه السلام . ما هو إلا مخلوق ولدته مريم عليها السلام. والمولود فيه إشارة إلى خروجه من موضع الولد. وهو في أسفل جزء من البدن، موضع قريب من موضع البول، بل خرج من مخرج الحيض ويصاحب الولادة خروج النجاسات من الدماء وغيرها التي تحيط بالمولود . حينئذ يأنف العاقل أن يقبل أن يكون الإله مولوداً، وهذا الأمر أقطع للحجة في الرد على النصارى، كما أن النظم هنا قدم قوله:﴿**إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ فعلمت أنه ولدها، فأجرى لفظ الولد على لسانها.

ولاحظ أن البشرى هنا جاءت بـ(كلمة) والكلمة لفظ عام يشمل أشياء كثيرة؛ لذا جاء سؤال مريم مشتملا على لفظ عام (الولد) فهو يطلق على الذكر والأنثى والمفرد والجمع ، بينما الغلام لا يطلق إلا على الذكر، أما في سورة مريم فعبرت بلفظ (غلام)؛ لأن جبريل . عليه السلام ـ قال لها: ﴿**لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ فأتى لفظ الغلام على لسانها تمشيا مع ما جرى على لسان جبريل . عليه السلام . فلفظ الغلام هنا جاء تبعا لا ابتداءً، كما أن ظل السياق لا يتناسب مع لفظ الولد وما يوحي به من الولادة وما يصاحبها من إرهاصات؛ حيث إن الذي يخاطبها رجل قطع عليها خلوتها فناسبه التعبير بالغلام مراعاة لحيائها الذي منعها من ذكر لفظ الولد بما فيه من قرابة صوتية و معنوية للفظ الولادة وما يصاحبه في الفكر من أحداث تتصل بعملية الولادة تخجل المرأة أن تتلفظ بها أمام الرجال، كما أن هناك تناسبا بين لفظة (ولد) وسياقها و(غلام) وسياقها من جهة أخرى وهي أن المخاطب في آل عمران جمع من الملائكة فناسبه لفظة (ولد) وهو يطلق على المفرد والجمع[1] ، والمخاطب في سورة مريم هو (جبريل) مفردا فناسبه التعبير بلفظ غلام الدال على المفرد .

وجاء قولها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ جملة حالية محققة لما وقع منها من استبعاد لأمر الولد واستنكار للحمل، والأصل في (المسّ) اللمس باليد واستعارته العرب للجماع[2]، وهو كناية استعملتها مريم من باب الحفاظ على حيائها، ومعلوم أن أبرز ماجبلت عليه المرأة في بناء شخصيتها هو صفة الحياء، وتكاد تكون هي الصفة الأساسية لكل امرأة تربت في وسط يؤمن

---

١. قد ورد في القرآن استخدامها في موضع الجمع (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) الكهف : ٣٩

٢ـ لسان العرب، لابن منظور : مادة (مسس)تحقيق: عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ،هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف.

بالفضيلة والأخلاق، فما بالك إذا كانت تلك المرأة هي مريم، فلا شك أن هذه الصفة ستكون أظهر وأوضح.

والتعبير بالكناية هنا اشتمل على نوع من المبالغة في إظهار عفتها وبراءتها؛ إذ بنفيه تكون قد نفت معناه الحقيقى والمجازي، ونفي المعنى الحقيقى وهو الملامسة التي هي أدنى مقدمة من مقدمات المعاشرة، يدل على نفي الجماع من أصله ، وبالتالي تنتفي فكرة الحمل من أصلها.

كما أن لفظة (يمسسنى) قد اشتملت على حرف السين الذي جاء متتابعا وكأنها تشير بذلك التكرار إلى الإصرار على عدم فعل هذا الشيء، وهذا أضفى على السياق مزيدا من الطهارة وحسن الأخلاق، كما أن حرف السين بما له من طبيعة احتكاكية مهموسة يحاكي صورة الملامسة بين الذكر والأنثى.

ومن الملاحظ أن النظم نفى الفعل بأداة جازمة (لم) وهذا يشير إلى نفي الفعل والجزم بعدم حصوله في الماضي أ والحاضر أو المستقبل، وكأن مريم" قالت: إني تفكرت في أزمنة وجودي ومثلتها في عيني لم أك بغيا ، فهو أبلغ في التنزيه؛ فلا يظن ظان أنها تنفي نفيا كليا مع أنها نسيت بعض أزمنة وجودها"[1].

وذهب بعض أهل التفسير إلى أن قولها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي**﴾ "نفي عام أن يكون باشرها أحد بأي نوع كان من تزوج أو غيره فهو يشمل الحلال والحرام ، وفسروا مجيء: ﴿**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ بأنها من باب التخصيص بعد التعميم؛ لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، واستدلوا بأن لفظ (بَشَرٌ) نكرة أتى في سياق النفي فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج"[2] .

١ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي (متوفي : ٧٩٤) : ٢/ ٣٨٠ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، ١٣٩١ هـ ، بيروت .

٢. الجامع لأحكام القرآن : ١١ / ٩ ، وروح المعاني : ٨ / ٣٩٦ .

وبالوقوف على المنهج القرآني في استعمال مادة (مس) [1] تجد أن القرآن الكريم قد اطرد فيه استعمال المس بمعنى الجماع المترتب على الزواج، وبهذا يكون قولها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ كناية عن الجماع الكامل الحاصل بالزواج، وهذا ما فطن إليه الإمام الزمخشري في قوله:" جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال، لأنه كناية عنه، كقوله تعالى﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ وقوله: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ**﴾ والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب". [2]

ولكن .. لماذا اكتفى النظم في سورة آل عمران بقولها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ وزاد في سورة مريم: ﴿**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾؟

المتأمل في سياق آل عمران يجد أنه سياق اصطفاء وتطهير لمريم، فالملائكة قبل تبشيرها بحملها، بشرتها باصطفاء الله لها، فلا حاجة لبيان براءتها من الزنى أو الفاحشة، ولو قالت في سورة آل عمران: ﴿**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ ما حسن السياق؛ لأن المنادي هنا ملائكة لا يتخيلون فيها التهمة بل يبشرونها من عند ربها بالتطهير والاصطفاء، فكيف لها أن تنفي عن نفسها ارتكاب الفاحشة ؟.

أما سورة مريم فلم تسبق باصطفاء ولا تطهير، وإنما فوجئت مريم بشاب أمرد يداهم خلوتها يبشرها بغلام وهي ليست متزوجة، فكان لزاما أن تنفي زواجها

١ـ ومن ذلك قوله تعالى :﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ (البقرة : ٢٣٦) وقوله تعالى :﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ (البقرة : ٢٣٧) وقوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ (الأحزاب : ٤٩) .وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ (المجادلة : ٣)

٢ـ الكشاف، للزمخشري، (المتوفى:٥٣٨هـ) : ٣ / ١٠، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ

وذلك في قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، وتثبت عفتها وطهرها من الفاحشة وهذا تمثل في: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

ومن فطنة مريم . عليها السلام . أنها جعلت الفاعل (بشر) دون (أحد) في قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، مع أن (أحد) يشمل الإنس وغيرهم كالجان، وفي هذا دليل على أن مريم أخذت تكرس جهدها وتركز كلامها وتوجهه نحو أسباب الحمل لتنزه نفسها ، فمعلوم أن المرأة من بني البشر لا يتأتى لها حمل إلا من مواقعة بشر، ولا مجال لإدخال غير البشر هنا؛ لأن الحمل يقع من النوع، وليس من خارجه فنفي التهمة عن غير البشر في هذه الحالة ثابت دون تلويح أو تلميح ، ولو قالت (أحد) لاحتمل الجن والإنس، إلا أن التهمة منفية عن الجن، فلا داعي لإقحامهم وخصوصا في هذا الوقت الذي يقتضي الإيجاز ، وهنا ملمح علمي وهو استحالة أن يكون هناك تناسل بين بشر وجان وهذا ما أكده العلم الحديث وأقره ، كما أن فيه ردا على أكاذيب من يحملون سفاحا ويدعون أن حملهم من الجان .

كما أن هناك تناسبا بين لفظة (بشر) وقولها (يَمْسَسْنِي) فالمس يكون بالجلد ومعلوم أن الجلد هو البشرة، فاللمس يكون مباشرة البشرة للبشرة ، وهذا يتناسب مع التعبير بـ(بشر) .

كما أن التعبير بلفظة (بشر) يتناسب مع معرض الكناية عن الجماع الذي هو فعل من أفعال الجسد، وقد تنبه الإمام الأصفهاني إلى أن لفظة بشر تأتي مع ما يحتاج إلى جثة فيقول: "وخُص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر"[1].

١ـ مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني صفوان عدنان داوودي، دار القلم – الدار الشامية ، ٢٠٠٩ – ١٤٣٠، رقم الطبعة: ٤،(مادة: بشر).

ولاحظ أنها أتت بـ (بشر) نكرة ليفيد عموم جنس البشر،كما أنها لفظ يقع على الواحد والاثنين والجمع، وهذا يتناسب مع دلالة العموم تلك الدلالة التي يستوجبها سياق التبرئة.

كما أنها لم تسند الفعل إلى (رجل) حتى لا يفهم أن مقصدها سن الرجولة لا غير ، فلا يدخل العجوز والصغير في النفي .

ومن الملاحظ أنها حرصت على نفي كل لوازم ومتعلقات البغاء، فعبرت بفعل (الكون) في قولها: :﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بما يقتضيه من تمكن الوصف وقوته، تأكيدا للنفي؛ للاعتناء بتنزيه ساحتها من الفحشاء، وبيان أن انتفاء الفجور ملازم لها، ومن الملاحظ أن مريم قالت:﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ولم تقل : (ولم أكن بغيا) حيث حذفت نون الفعل (أكن) مع جواز ذكرها، ولعل ذلك يعود إلى أنّ المقام يستدعي الإيجاز والإسراع من الانتهاء من المعاني المرادة، والتعبير عنها بأقل قدر ممكن من الكلمات والأحرف؛" لأنه لما هالها هذا الأمر، أداها الحال إلى غاية الإسراع في إلقاء ما تريد من معانٍ لعلها تستريح مما تصورته، فضاق عليها المقام، فأوجزت حتى بحذف نون «كان»"[1]، كما أن مجيء الفعل بهذه الصيغة قد سهل الانتقال إلى الكلمة التي تليه(بغيا) وبشكل سريع حرصا منها على الوصول إليها في أسرع وقت .

كما أن مريم . عليها السلام . كانت تخاطب رجلا جاءها في خلوتها ليبشرها بغلام وهي عذراء فكان الإيجاز مناسبا لحيائها وخفرها، فالمرأة العفيفة لا تستطرد في خطاب الأجنبي، بل تحرص على أن يكون كلامها على قدر الحاجة، كما أن حذف (النون) من الفعل فيه تنبيه على صغر مبدأ الشيء المذكور (بغيًا)، و فيه تخفيف لأمر الحدث وتهوينه على مريم –عليها السلام– ، فهذا الاقتطاع أتى؛ للدلالة على أن السيدة مريم لم تكن بأدنى درجة من البغي فكيف بأعلاه؟! .

---

١. نظم الدرر : ١٢ / ١٨٥.

كما أنه من المعلوم أن حذف (النون) من آخر الفعل يدل على الجزم، وهذا أمر يأخذ بأيدينا إلى الوقوف على دلالة معنوية وراء هذا الحذف وهي أن مريم قصدت حذف النون؛ للدلالة على معنى القطع والجزم في دعواها، وكأنها تقول لمن تخاطب كوني غير بغي أمر قطعي مجزوم به لا شك فيه ولا ريب، وبهذا تكون قد قطعت عن نفسها كل صلات البغي.

ومعلوم أن قولها:﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾"نفي لأن تكون بغيا من قبل تلك الساعة، فلا ترضى بأن ترمى بالبغاء بعد ذلك. فالكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب، والمعنى: ما كنت بغيا فيما مضى أفأعد بغيا فيما يستقبل؟!"[١].

وعبرت مريم . عليها السلام . بقولها: ﴿بغيا﴾؛ للمبالغة في نفي البَغْي، واختارتْ بغيا دون (باغية)؛ "لأن(باغية) تتعلق بحقوق ما حول العِرْض، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة في هذا الفعل" [٢].

وتأمل دقة اختيار مريم لهذه اللفظة(بغيا) دون غيرها من الألفاظ المرادفة لها كـ (زانية)؛ فلفظة (زانية) لا تتعدى أن تكون وصفا لمن ارتكب هذه الفاحشة، أما (بغيا) فقد حملت في طيها دلالات متعددة أدت إلى اتساع المعنى مما يفي بمراد مريم في إقامة سياج قوى لعفتها، والدفاع عن نفسها، والمتأمل للفظة بغيا يجد أن من معانيها الظلم وهو مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء، وهذا وصف زائد تنشره لفظة بغي على من يرتكب الزنى، والبَغْيُ التَّعَدِّي وبَغَى الرجلُ علينا بَغْياً: عَدَل عن الحق واستطال وجاوز الحد، ومن معانيه أيضا: الظُّلْم والفساد ... ومعنى البَغْي قصدُ الفساد، ويقال فلان يَبْغي على الناس إذا ظلمهم وطلب أَذاهم[٣] ،وهذه المعاني كلها قد تقصدها مريم في

---

١. التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٢ .
٢. تفسير الشعراوي: ١٥ / ٩٠٥٧ .
٣. لسان العرب مادة (بغى) .

حديثها مع جبريل، فهي ليست امرأة فاسدة حتى يتأتى منها ما ينافي الأخلاق، وليست زانية كي تلد دون زواج، ولم تكن ظالمة أو مجاوزة الحد حتى يفعل بها ذلك ، وهذا كله يحمل تنفيرا من فعل الزنى .

ومن يتأمل كلام مريم في الرد على جبريل يجد أنها استعملت ما يشبه الحجاج العقلي، حيث احتجت على كلام الملك بالمنطق والواقع، ولم تلجأ إلى الجدل المفضي إلى الاختلاف، حيث وجهت إلى مخاطبها كلاما يلزمه بإتيان الدليل على خلافه فبدَّدت كل شبهة قد تحوم بها بحجة عقلية لا تقبل الطعن، ويلاحظ أن ما قالته خرج منها عفوا فهي في كربة ومحنة لا تتحمل التنميق أو التزيين، كما أنها خاطبت العقل لا المشاعر، وهذا كله يكشف لنا عما تمتعت به مريم من قوة الشخصية وعلو الهمة، وهذا شأن المرأة العفيفة إذا وقعت في مثل هذا الموقف، كما أن كلام مريم في سورة آل عمران ومريم، لم يتخلله أية علامة من علامات الوقف وذلك يدل على أن المرأة الطاهرة العفيفة إذا تعرضت لموقف يطعن في شرفها فهي لا تتردد في مواجهة الموقف للكشف عن طهارتها، دون تراخ أو تردد، بل إنها تسرد دوافع طهارتها متتالية دون تقطع لأنها تقف على أرض صلبة قوامها الأخلاق الطيبة .

وإذا كان ما صدر من مريم من حجج أظهر ما تمتعت به من ثبات انفعالي شديد، فإنه أيضا قد كشف عن بعض سجاياها، حيث إنها لم تخرج عن حيائها وسط انفعالها، واستعملت الكناية في التعبير عن الجماع، ومعلوم أن الأخلاق التي يتظاهر بها الإنسان تتبدد حال انفعاله ويبقى ما فطر وطبع عليه .

وهنا ينتهي كلام مريم . عليها السلام . في سورة آل عمران، إلا أنه في سورة مريم ما زال له بقية، إذ إن سورة مريم الأولى نزولا فأتت أكثر تفصيلا، حيث ذكر فيها معاناة مريم لحظة ولادتها وما صدر منها من حديث .

واستكمل الحكي السردي في سورة مريم أبعاد الحدث: ﴿**فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ (مريم: ٢٢، ٢٣) ثم

يتحول المشهد من السرد إلى الحوار، ولكن تلك المرة حوار ذاتي حيث خاطبت مريم نفسها فقالت: ﴿**يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾، وجملة ﴿**قالت يَالَيْتَنِي**﴾" استئناف بياني؛ لأن السامع يتشوف إلى معرفة حالها إبان وضع حملها بعد ما كان أمرها مستترا غير مكشوف بين الناس وقد آن أن ينكشف، فيجاب بأنها تمنت الموت قبل ذلك فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها"[١]

وهذا القول يظهر مفارقة عجيبة لدى مريم؛ لأنها قالت تلك المقولة على الرغم من إخبار جبريل لها مسبقا ، فالأمر ليس بالجديد إلا أنه في أوله كان يغلب عليه طابع الدهشة والإنكار، أملا منها أن تجد منه مخرجا، كما أن أمرها كان مستترا غير مكشوف بين الناس، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية لا مفر منها وقد آن أن ينكشف فكان ذلك أدعى لهذا القول؛ لأنها ستواجه بعد قليل مجتمعا لا يبيح السِّفاح، ويتأفف من الفاحشة ويعير فاعلها، فهي لا تدري ماذا ستفعل؟، فأحست أن الموت أهون عليها من تلك المواجهة، وهذا من طباع بنات حواء حيث إنهن لم يتمتعن بحسن الإبانة في مثل هذه المواقف؟ فإذا فرضت عليهن الظروف الوقوع في مثل هذا الموقف لجأت إلى تمني الموت نظرا لضعفها وعدم قوتها في مواجهة المجتمع.

ومن الملاحظ أن هذا الموقف كان يتسم بالمشقة والثقل ولا أدل على ذلك من التعبير بلفظة : ﴿**فَأَجَاءَهَا**﴾، ومعلوم أن المجيء يكون في الأمور التي يعتريها مشقة وتعب بخلاف (أتى)، بالإضافة إلى أن صوت الهمزة تكرر مرتين في هذه اللفظة، مع أنها من "أشق الحروف وأعسرها حين النطق؛ لأن مخرجها فتحة المزمار، ويحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق"[٢] وهذا

---

١. التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٥ .

٢. الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل:١٤٤،دار صفاء للنشر، الطبعة الأولى،عمان، ١٤١٨هـ ،١٩٨٨ م

التكرار جعل في اللفظة ثقلا يجسد الهم النفسي الكبير الذي وقع على كاهل مريم وهذا الهم الكبير ظهر في كلامها فإذا بها تقول: ﴿**يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ وهذا إنشاء طلبي يدل على شدة تحسرها وخوفها، وفي استعمالها (يا) بما تمتاز به من مد في الصوت يدل على شدة ما انتابها من حزن شديد وخوف كبير مما استدعاها لاستعمال حرف يساعدها على مد صوتها، واستعملت (ليت)؛ لأن مريم ساعة تلفظت بقولها كانت على قيد الحياة وهذا يناسبه التمنى، كما أن هناك انسجاما إيقاعيا قام على صوت (التاء) في (مت ، وكنت) فصوت التاء بما يتميز به من رقة كان له أثر في بيان ضعف مريم وقلة حيلتها .

واستعملت اسم الإشارة في قولها: ﴿**قَبْلَ هَذَا**﴾ الذي يستعمل في القرب، و يشار به إلى المحسوس، والإشارة هنا إلى أمر معنوي وهو "الوقت الذي لقِيت فيه مريم ما لقِيت"[١] وبهذا تكون إشارتها لأمر معنوي بغرض تجسيده تعظيما لمصابها الذي حل بها في هذا الموقف حتى صار عندها أشد من الموت، وفي استعمالها فعل الكون (كُنْتُ) ما يدل على أنها أحبت أن لو كان نسيانها واقعًا منذ زمن بعيد ضارب في أعماق الماضي، ومعلوم أن النسيان يزداد كلما مر عليه فترة من الزمن، وقولها: (نَسْيًا) أي شيء حقِير مُطَّرَح لا يُلْتَفَت إِليه والذي من شأنه أن ينسى فلا يتألم لفقده[٢]، ولشدة ما نزل بها لم تسكت عند هذا الحد بل وصفت النسي بـ(منسيا) مبالغة في نسيان ذكرها، أي: ليتني كنت شيئا غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحل به[٣]، فهي لم تتمن الموت فحسب بل تمنته مع انقطاع ذكرها بالكلية؛ لهذا ذكرت لفظ (منسيا) بعد (نسيا)؛ لأن النسيّ: الشيء التافه الذي يُنسَي في ذاته، لكن رغم

---

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٥ / ٢٦١ .
٢. لسان العرب مادة (نسى) .
٣. التحرير والتنوير : ١٦ / ٨٦.

تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويبحث عنه، فلما أكدت النسيّ بقولها: (منسياً) فقد جمعت في كلامها بين حقارة الشيء وبين عدم الاهتمام به فلا يذكره أحد، ولا يفكر فيه، لأن كلمة (منسيا) أبعد وأعمق في الدلالة على النسيان.

وهنا ينتهي كلام مريم،عليها السلام .، تمهيدا لانتهاء دورها في صورة الحدث ليحل محلها ولدها . عيسى ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث

كلام سارة زوج سيدنا إبراهيم . عليه السلام

ورد كلام زوج إبراهيم . عليه السلام . في موضعين الأول في سورة هود، حيث قوله تعالى:﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود : ٧٢)

والموضع الثاني في سورة الذاريات في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات :٢٩).

المطلب الأول (كلام زوج سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سورة هود)

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهُٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هُٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: ٧٢).

السياق والمعنى:

ورد هذا الكلام على لسان السيدة سارة زوج سيدنا إبراهيم . عليه السلام . حينما أتت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وبشرته بالولد بعد أن طعن في السن وأصبح شيخا كبيرا ، ولقد عرض القرآن هذا المشهد في أربعة مواضع من سورة هود والحجر والذاريات وإشارة سريعة في سورة العنكبوت، إلا أن سورتي هود والذاريات التقتا في إظهار شخصية زوج إبراهيم . عليه السلام . بشكل واضح وفعال، ولعل شخصية زوج إبراهيم . عليه السلام . لم تظهر في سورة الحجر؛ لأن جو الوعيد المشتمل على الإهلاك قد سيطر على جو السياق من بداية السورة، وفيه سب للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستعجال لنزول ملائكة العذاب وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الحجر: ٦،٧) وهذا الأمر جعل النظم يبرز صورة الملائكة وما أتت به إلى قوم لوط، وجعلهم محور الحدث، دون أن يقف مع زوج إبراهيم وما صدر منها؛ لينتقل إلى قوم لوط وما نزل بهم ليكون عبرة لغيرهم ممن آذوا رسول الله . ﷺ ـ أما في سورة العنكبوت فقد جاء الحديث عن

ضيف إبراهيم في لمحة سريعة توسطت قصة لوط ـ عليه السلام ـ ولم يكن القصد منها ذكر ما حدث مع سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجه .

من بلاغة كلام زوج سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ

يقول تعالى :﴿**قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾

صدر هذا القول من السيدة سارة، حينما سمعت بشرى الولد من الملائكة، تلك البشرى التي قصها القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ (هود :٧١)، ومن المعلوم أن السيدة سارة كان عمرها في هذا الوقت تسعين أو تسعًا وتسعين سنة، وكان عمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ مائة وعشرين سنة[١]، وهذا الأمر يولد في نفس السامع سؤالا تقديره وماذا فعلت عندما بُشِّرت بذلك الأمر في هذا العمر ؟ فجاء قوله تعالى : ﴿قَالَتْ ...﴾ استئنافا وهو ما يعرف بشبه كمال الاتصال، والاستئناف هنا يعد مظهرا من مظاهر جذب الانتباه والإثارة والتشويق الذي يتميز به الحوار القرآني، وجاء كلامها حاملا تعجبا بسبب ما بشرت به؛ لأن مانع الإنجاب متحقق لديها ولدى زوجها في آن واحد، وقد تحقق هذا التعجب في قولها: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾، وهو أسلوب تفجع وتهويل" يؤذن بأمر فظيع يخف على أفواه النساء، بل وهي من أكثر الكلمات التي تجري على ألسنة النساء قديما وحديثا ويستعملنها إلى اليوم، ... والويل: حلول الشر؛ والألف في آخره بدل عن ياء الإضافة، كنى بها هنا عن العجب الشديد لما فيه من الشهرة ومراجمة الظنون؛ وقال الرماني: إن معناها الإيذان بورود الأمر الفظيع كما تقول العرب: يا للدواهي! أي تعالين فإنه من أحيانك فحضور ما حضر من

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٤ / ٢٢٥.

أشكالك "وعلى هذا يكون هذا النداء"[1] من قبيل الاسْتِعَارَة المكنية حيث نزّل "الْوَيْلَةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى تُنَادَى، كَأَنَّهَا تَقُولُ: يَا وَيْلَتِي احْضُرِي هُنَا فَهَذَا مَوْضِعُكَ"[2]، وتلفظ الزوجة بهذا القول دون إبراهيم . عليه السلام . يؤكد أن النساء، أهل جزع وفزع، يهرعن إليه متى تعرضن لأمر غريب، فلايملكن ضبط أنفسهن، وقد كشفت سورة هود عن جانب القول الدال على جزعهن، وكشفت سورة الذاريات عن أفعالهن وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا**﴾، وفي مجيء السؤال على لسانها ما يكشف عن بعض طباع النساء حيث حب الكلام، وطرح الأسئلة والاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة .

كما أن المتأمل في موقف السيدة سارة يجد ثمة تشابها بين ما حدث معها وما حدث للسيدة مريم . عليها السلام . فكلتاهما تنتمي إلى جنس النساء، وكلتاهما تبشر من الملائكة بولد على خلاف المتعارف لدى بنى البشر، ولكن العجيب هنا أن حال السيدة مريم أشد عجبا وأشد استغرابا من موقف السيدة سارة، إلا أن رد فعل السيدة سارة جاء في أعلى صور الاستغراب، وأشد حالات الاندهاش وذروة الانفعال الأنثوي، ويظهر ذلك في قولها: (ياليتني) ثم ما صدر منها من تعجب ضمني أتى في التعبير بالاستفهام (أألد)، ثم تصريحها به في قولها: ﴿**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾، وهذا الأمر أنكرته الملائكة في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ وهذا القول يشي بنوع من اللوم الموجه من الملائكة للسيدة سارة، إذ إنها "ناشئة في بيت النبوة ومهبط الوحي ومحل الخوارق، فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر

---

١. نظم الدرر : ٩ / ٣٣١ ، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) : ١٢ / ١٠٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م

٢. التحرير والتنوير :١٢ / ١٢٠ .

النساء"[1]،أما السيدة مريم فكانت أكثر اتزانا وتماسكا منها، فلم يصدر منها إلا تعجب ضمني في استفهامها﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾ ولعل ذلك راجع إلى التفاوت في الحالة الإيمانية، فعلى الرغم من أن السيدة سارة من بيت النبوة إلا أنها لم تلق من الكرامات ما لاقته السيدة مريم من تقبل من الله ثم الاصطفاء والتطهير، فهي ليست كسائر النساء.

وقولها:﴿أَأَلِدُ﴾ استفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التعجب والاستبعاد؛ لخروج ما بشرت به عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر، وقد أدخلت همزة الإنكار على الفعل (ألد) ؛ لتوجه إنكارها للفعل إذ إنه محل الإنكار عندها.

وقد أتت همزة الاستفهام داخلة على همزة القطع وبقيت على أصلها وهو تحقيق الهمزتين ولم تسهل، ولعل ذلك يتناسب مع المقام ، فالسيدة سارة من شدة عجبها تريد أن تتحقق من صحة البشرى التي سمعتها؛ لأن حملها يخالف نواميس الكون المعتادة، فمثلها لا يلد؛ لهذا عللت تعجبها وأكدت استبعادها بجملتين حاليتين من الضمير في ﴿ أَأَلِدُ﴾، وهما ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ : أي أألد وكلانا على حالة منافية لحدوث الحمل؟ .

وبدأت كلامها ببيان حالها قبل بيان حال زوجها؛"لأن مُباينةَ حالِها لما ذُكر من الولادة أكثرُ إذ ربما يولد للشيوخ من الشوابِّ أما العجائزُ فداؤُهن عَقامٌ، ولأن البشارةَ متوجهةٌ إليها صريحاً، ولأن العكسَ في البيان ربما يُوهم من أول الأمر نسبةَ المانِع من الولادة إلى جانب إبراهيمَ . عليه السلام . وفيه ما لا يَخفَى من المحذور، واقتصارها الاستبعادِ على ولادتها من غير تعرضٍ لحال النافلةِ لأنها المستبعَدة وأما ولادةُ ولدِها فلا يتعلق بها استبعادٌ"[2].

---

١. الكشاف: ٢ / ٤١١ .

٢. روح المعاني ٦ / ٢٩٧ .

ومن إعجاز القرآن أنه لما ساق تعليل تعجب تلك الزوجة، وصف المرأة بعجوز، والرجل بشيخ؛ وذلك لأن المرأة عندما تطعن في السن فإنها تدخل في سن اليأس الذي تعجز المرأة معه عن الإنجاب لانقطاع الطمث بسبب انتهاء البويضات المخزَّنة في المرأة، فيبطل حينئذ استعدادها للحمل والولادة، في حين أن الرجل لا يصيبه عجز بل يصاب بالشيخوخة مع تقدم العمر وهذا الأمر يقلل من فرص الإخصاب عند الرجل ولا يمنعها نهائيا في الغالب.

وفي تعريفها المسند إليه باسم الإشارة في ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ ما يدل على أنها في غاية العجب حتى إنه يخيل إليها أن الملائكة قد غاب عنها حال زوجها، فاستعملت اسم الإشارة؛ لتميزه لهم أكمل تمييز عن طريق الإشارة الحسية، ويجعل من وصف حالة الشيخوخة وصفا كاملا مبنيا على المشاهدة، وكأنها تقول لهم :انظروا إلى زوجي وتبينوا حاله وما أصابه من وهن، فإذا تبين لكم حاله فكيف يكون له ولد وهو كما ترون؟ .

وفي استعمال لفظة (بعل) دون (زوج) ما يكشف عن سمت من سمات الإعجاز البلاغي للقرآني الكريم، فمع أن كلتا اللفظتين وردت في لغة القرآن إلا أن لكل لفظة اعتبارات خاصة، ودلالات لطيفة، والمتتبع لاستعمال القرآن للفظة (بعل) يجد أنها ترد في مواضع لا تخلو من أمور تهدد الحياة الزوجية ، والتي منها عدم تحقق ثمرة من أهم ثماره وهو الإنجاب، وهذا الأمر من شأنه في أحيان كثيرة أن يقوض بناء الحياة الزوجية أو ينغص هناءها ويعكر صفوها لهذا استعمل هنا لفظة (بعل)؛ لأنها " الكلمة الوحيدة التي تصور الواقع بكل أمانة ووفاء؛ لأنها تدل على أن من أطلقت عليه له روابط زوجية بـ(امرأة) لكنها مشوبة بما يتنافى معها"[1]، ويقوي ذلك قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ فعبر بالمرأة دون الزوجة؛ ليدل على أن هناك أمرا طارئا وقع فأخل

١ـ دراسات جديدة في إعجاز القرآن ،أ. د / عبد العظيم المطعني: ١٩٦ ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .

بشأن تمام الزوجية، فهي لفظة تدل على أنها امرأة ذات زوج لا مجرد أنثى خالية من علاقة الزواج، ومع ذلك فلم يتحقق فيها وصف (زوجة)؛ لأن حياتها لم تصف مع بعلها من كل المكدرات .

ولما ذكرت في كلامها عدة أشياء تثير العجب ختمت حديثها بـ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تثبيتا لما أنكرته وتعجبت منه، وأتت الخاتمة منفصلة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال فهي مؤكدة لما قبلها، " وكأنها كانت مترددة في أنهم ملائكة فلم تطمئن لتحقيق بشراهم "[1]؛ لذا فقد اشتملت على عدد من المؤكدات منها: (إنّ)، واسمية الجملة، ولام التأكيد، كما أن التعبير باسم الإشارة في ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أبلغ من غيره، فالإشارة هنا تعود إلى حصول الولد من عجوز عقيم وشيخ كبير، وكأنها تستحضر هذا الحدث وتشخصه أمامها ثم تشير إليه للتعجب منه، كما أن اسم الإشارة قد تعاور مع التنكير في لفظة(شيء) المنونة، ووصفه بـ(عجيب)؛ للدلالة على استعظام الحدث المشار إليه، وتفخيم شأنه بما يستوجب التعجب منه وكأنه من شدة عجبه عجب بعضه من بعض، وبهذا يكون قد أحدث النظم الفخامة الذاتية للحدث المشار إليه باسم الإشارة، بالإضافة إلى التنكير والتنوين في (شيء) وكذا الفخامة الوصفية بكلمة (عجيب).

ومن الملاحظ أن المرأة سردت كلامها دون انقطاع بوقف مستحب أو لازم؛ لتساير سرعة الحدث، وحرصا منها على بيان كل أوجه العجب التي حلت بها، وبهذا يكون النظم قد كشف النظم عن حجم العجب والدهشة التي نزلت بتلك المرأة مع أنها من آل بيت إبراهيم فما بالك بغيرها من بني جنسها؟!.

---

١. التحرير والتنوير :١٢ / ١٢١ .

المطلب الثاني

كلام زوج سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سورة الذاريات

يقول تعالى :﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

من الملاحظ أن كلام السيدة سارة هنا أوجز من كلامها في هود ولعل ذلك الأمر راجع إلى اختلاف السياق، ففي هود كانت الزوجة حاضرة ووجهت الملائكة الخطاب لها مباشرة، بعد أن بشرت إبراهيم . عليه السلام .،فناسب هذا أن تطيل في كلامها، أما في الذاريات فالبشارة جاءت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بالصفة الأساسية وسمعتها سارة بالتبعية، ولم يفصح القرآن عن حضور الزوجة، بل ذكر أنها أقبلت بعد أن سمعت ما بُشر به الزوج، كما أن الخطاب لم يوجه لها بل وجه لإبراهيم . عليه السلام .، وهذا من شأنه أن يجعلها توجز في كلامها، بالإضافة إلى أن سورة هود متقدمة في النزول على الذاريات ففصل القول في المتقدم دون المتأخر وأتى في كل سورة منهما بما يناسب ظل السياق الذي وردت القصة فيه ، ومن الملاحظ أن ظل سورة الذاريات من أوله يوحي بالسرعة حيث بدأت بالريح العاصفة ذات السرعة العالية، وظهرت السرعة أيضا في عرض قصصها وسرعة إنهائها، وهذا يتناسب مع أن يكون كلام سارة هنا أوجز؛ ليتناغم مع ظل السورة .

ومن الملاحظ أن السرد هنا كان له النصيب الأوفر في وصف المشهد حيث وصف حال السيدة سارة فقال:﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ والصرة: الضَجَّة والصَيْحَة[1]، وما تلفظت به في ضجيجها صرح به النظم في سورة هود، ولما كانت نفس المرأة قد امتلأت عجبًا قال عنها :﴿فِي صَرَّةٍ﴾ فعبر بـ(في) التي للظرفية المجازية؛ ليكشف عن حجم تلك الصيحة، ويصورها للسامع في صورة جسم مادي هي في وسطه، وقد أحاط بها الصياح من كثرته، فصراخها انتشر في كل اتجاه، ولاحظ جرس التكرار في حرف (الراء)

---

١. لسان العرب ، مادة صرر .

المشددة في (صرَّة) وما يوحي به من شدة وتكرار، وهذا الجو يتناسب مع افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ (سورة الذاريات: ١) أى الرياح االتى تذرو التراب[١]، وذَرَّ الشيءَ يَذُرُّه نثره وبَدَّدَهُ[٢]

و﴿صَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي لطمته "تعجبا وهو من فعل النساء إذا تعجبن من شيء"[٣]، وهذه حركة جسدية تحمل بين ثناياها دلالة التعجب والاستنكار والدهشة على ما سمعته من بشرى، "لتلاشي أسباب الولد في علمها بسبب العادة"[٤]، وتتناغم تلك اللفظة بمعناها الذي هو الضرب الشديد[٥] وجرسها مع مشهد صك الريح وصوتها وقوة تأثيرها، وبهذين الأمرين يكشف لنا القرآن عن طبيعة من طباع النساء تتمثل في ميلهن إلى إخراج ما بداخلهن من تعجب بالصوت تارة، وبالحركات تارة أخرى، بمجرد أن يطرق آذانهن، أو يلوح أمام أعينهن ما يدهشهن، وهذا يعد دليلا من دلائل ضعفهن .

ومن الملاحظ أن النظم حكى عن زوج إبراهيم . عليه السلام . أنها ضحكت في سورة هود، وصكت وجهها في سورة الذاريات، ومعلوم أن النظم يكمل بعضه بعضا، إلا أنه يأتي مع كل سياق بما يناسبه، ففي سورة الذاريات ضحكت لما سمعت خبر إهلاك قوم لوط، ثم لما كانت البشارة بالحمل وما فيها من غرابة بسبب عقمها صكت وجهها.

ثم يقص النظم جانبا مما تلفظت به؛ ليكشف عن الأسباب وراء ما صوره القرآن من أفعال أتت بها فقال: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، وجاء حذف المسند إليه هنا مناسبا للتعبير عما نزل بتلك الأنثى من اضطراب بسبب هول المفاجأة، وما اصطحبه من ضيق حل بصدرها جعلها تتعجل الكلام وتختصره

---

١. ينظر إرشاد العقل السليم : ٨/ ١٣٦.
٢. ينظر لسان العرب مادة (ذرر) .
٣. روح المعاني : ١٤ / ١٥ .
٤. نظم الدرر : ١٨ / ٤٦٤ .
٥. ينظر لسان العرب مادة (صكك) .

وتتنحى عن الإطالة فيه، فحذفت ضميرها(أنا)، ولعل ذلك راجع إلى أنها خجلت أن تتحدث بما يشير إليها، حيث إنها عجوز ولا تلد والتقدير: أنا عجوز عقيم، كما أن هذا الإيجاز عمل على اختصار المشهد مراعاة لجو السرعة الذي امتاز به ظل سورة الذاريات .

وقدمت في كلامها: (عجوز) على (عقيم)؛لأن الأول هو الأهم في اعتقادها والأنسب لموقفها، فالعقم عرض قد يزول، أما العجز الذي وجد بسبب عامل السن فهو حاجز منيع؛ لأنه أفقدها المقومات اللازمة للأنثى كي تصلح لعملية الحمل و تتحمل مشاق الولادة.

المبحث الرابع

كلام امْرَأة العزيز ونسوة المدينة

ورد حديث امرأت العزيز ونسوة المدينة في سورة يوسف في الآيات (٢٣، ٢٥، ٣١، ٣٢، ٥١، ٥٢، ٥٣)، ويعد كلام زليخا امرأة عزيز مصر نموذجا يكشف عن بعض سمات زوجات أصحاب السلطات اللاتي نشأن في بيئة مترفة مما يجعلهن صيدا سهلا للنفس وأهوائها.

المطلب الأول

موقف المراودة

يقول تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة يوسف (٢٣: ٢٥)

عرض السياق والمعنى:

تقص هذه الآيات جانبا من جوانب قصة سيدنا يوسف . عليه السلام . وما حدث له من امرأة العزيز التي دبرت له المكايد؛ كي توقعه في فعل الفاحشة، إلا أنه أبى وفر من بين يديها هاربا لينكشف أمرها بين يدى زوجها، فحاولت لصق التهم بيوسف، إلا أنه ـ عليه السلام ـ يسرع إلى رد التهمة بالدليل؛ لتتكشف الحقائق كاملة .

من بلاغة كلام امرأة العزيز:

المتأمل لهذه الآيات يجد أنها أظهرت جانبا من كلام امرأة العزيز وأضمرت جانبا دل عليه السرد القرآني، وأول قول يطالعنا لهذه المرأة هو قولها:﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ إلا أن هذه الكلمات القلائل التي تحمل دعوة سافرة غليظة من جانب تلك المرأة، ليست بأول الحدث، وإنما هي نتيجة حتمية لما قبلها من أحداث

وإغراءات وتلميحات، فعلى الرغم من أن البحث يهدف إلى الوقوف على خصائص ما جاء على لسان النساء من كلام، إلا أنه يجب الوقوف هنا على ما سبق اللفظ من أحداث؛ لأن ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تصريح بأمر تخجل المرأة أن تقدم عليه إلا بعد مقدمات طويلة، وأول ما يواجهنا منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ فهذه الكلمة تختصر الحدث، و تصور للمتلقي من أول وهلة مدى إعجاب تلك المرأة بيوسف . عليه السلام، وهذا التصور تحقق من زمن الفعل، ومعناه، ووزنه، فصيغة الماضي تدل على تحقق الفعل، أما معناه فيشعرنا بأنها جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لونًا بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ باذلة قصارى جهدها في التحايل كي تحقق ما أرادت؛ لأن هذه اللفظة مأخوذة من قولهم: "رادتِ الإبلُ ترودُ رِياداً إذا احتلفت في المرعى مقبلة ومدبرة، كما أنها تحمل معنى الرفق واللين والحلم والتجمل"[1]، "وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفد إلى غايتها؛ كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها"[2] وبهذا تكون هذه اللفظة قد حملت في طيها تصورا للطريقة التي عاملت بها امرأة العزيز يوسف . عليه السلام . وتكشف عن مدى الرقة التي استعملتها في كلامها معه، على الرغم من كونها سيدته، إلا أن الحب إذا ما تملك قلب المرأة بدل حالها وجعلهاتتزل عن مكانتها، واستولى سلطانه على سلطانها، أما صيغة المفاعلة فتكشف عن الجهد الذي بذلته للوصول إلى غرضها، فهي تكرر محاولتها مرة بعد مرة، لعل يوسف . عليه السلام . يفتتن بما تظهره من محاسنها، فتستثير اشتهاءه إياها فيبادر هو بطلب ما تريده منه.

---

١. لسان العرب :(رود)، وإرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٦٤ .

٢- وحي القلم،للرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ):١/٩٥، دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

ومن يتأمل قوله تعالى: ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ يجد أن الجار والمجرور قد كشف عن عدة دوافع لما صدر من تلك المرأة من كلام، حيث إن حرف الجر (في) بما يحمله من معنى الظرفية يشير إلى أن يوسف كان موجودا أمام عينها طوال اليوم، بعيدا عن كل الأنظار، في بيتها مكان سكناها الذي تبيت فيه، وهذا جدير بتحقيق الخلوة والاستتار عن الأنظار والمأمن من أن يطالعها أحد ، وبهذا يكون الجار والمجرور قد بين أن هذه المرأة تدبر مكايدها في مكان تستطيع فيه أن تظهر من مفاتنها ما لا تلام عليه من أحد وبهذا تستطيع أن تبذل كل مالديها في إغرائه مقبلة عليه ومدبرة، متدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة وفي كل آن دون قيد ولا حظر، إذ هي في بيتها تفعل ما تشاء.هذا بالإضافة إلى أنها في بيتها تعرف الوقت المناسب الذي تأمن فيه العيون، وبهذا فهي تطوع كل الظروف لصالحها دون أن يثنيها أي عائق عن فعل ما تريد، وهذه أمور تأخذ بالسياق إلى التصريح بما تريد والإفصاح عما سعت له بالفعل قبل القول.

وبهذا تكون تلك المرأة قد وصلت إلى حافة المصارحة بمرادها، فلم يعد أمامها بد من أن تتلفظ بما صرحت به أفعالها، فقررت أن تقوم بخطوة عملية تمكنها من مرادها فشرعت في تدبير خلوة تمكنها من نيل مرادها فعمدت إلى تغليق الأبواب وأتى الفعل (غَلَّقَ) مضعفا؛ ليدل على شدة الفعل وقوته، أي أغلقت إغلاقا محكما، ويدل كذلك على كثرة ما أغلقته من أبواب، بدليل صيغة الجمع (الأبواب) وذلك مبالغة في الغلق، بما يتناسب مع قوة الرغبة الجامحة التي ملأت جنبات تلك المرأة حتى أصبحت هي المحرك لها ، كما أنها تدل على حرصها توفير عامل الأمان والطمأنينة وإبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر في نفس يوسف – عليه السلام– ويمنع استجابته لها؛ لذا عزمت على إزالة أي حاجز قد يمنعه من الاستجابة لطلبها وإغلاق باب خوف انكشاف الأمر، أو اطلاع الغير من قلب يوسف . عليه السلام . فيقبل على طلبها ملبيا، كما أنها توفر لنفسها

جوا يملؤه الأمان حتى يخرج قولها هادئا رقيقا لايعكر صفو رنينه خوف اطلاع الغير برؤية أو سماع.

وبهذا تكون تلك المرأة الآن جاهزة للتلفظ بما تريد؛ لتصل به إلى نهاية المطاف، ومهد السياق له بـ (قالت) بما تنشره (تاء) التأنيث التي لحقت الفعل في النفس من التهيئة لسماع صوت أنثى يحمل ضعفا ورقة، مع لين ولطف.

وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قول موجز صريح يكشف عن حالة التدافع التي وصلت إليها تلك المرأة، فهي الآن بين يأس من الوصال ودفع تفكير يقاد بضجيج الشهوة العمياء الثائرة، ساقها إلى المكاشفة والتصريح، وهذا يكشف للمتلقي مقدار ما وصلت إليه من حالة تشبه الجنون.

ولعلها اكتفت بهاتين اللفظتين؛ لأنها هيأت الموقف بما لا يدع حاجة للكثير من الكلام وكأنها اعتمدت على أفعالها، و(هيت) لفظة تحمل في حروفها ومعناها دلالات الرغبة الشديدة والخضوع، فهي اسم فعل أمر يحمل معنى الحث على الإقبال والسرعة أوبمعنى، تهيأت من أجلك خاصة.[1]

وقد يكون قولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ "حكاية صوت قالته؛ لاستدعاء هذا الأمر الذي يكون بين الرجل والمرأة، وقد جاء به القرآن الكريم، على هذه الصورة التي لم تعرفها اللغة العربية فى لسانها قبل نزول القرآن.. لأنه يحدث عن حال من شأنه أن يكون سرا بين الرجل والمرأة، ولغة مفهومة لهما، لا يعرفها غيرهما.. وذلك إعجاز من إعجاز القرآن[2] ، ولعل سبب اختيارها لـ(هيت) دون غيرها، "أنها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم"[3]، كما أن هذه الكلمة بحروفها الثلاثة (الهاء، والياء، والتاء) تمثل للسامع الحالة التي نادت بها تلك المرأة على يوسف وما كان منها من تمايل بقصد إغرائه

---

١. نظم الدرر : ١٠/ ٦٠ .
٢. تفسير القرآن للقرآن : ٦/ ١٢٥٢ .
٣. تفسير المنار : ١٢ / ٢٢٨ .

بنغمات صوتها، وهذا يظهر في طبيعة تلك الحروف وصفاتها فـ(الهاء) تتميز بأنها رخوة لينة، فيها همس وخفاء، ورقة وانفتاح، وكذا الياء، والتاء أيضا حرفان فيهما رخوة وهمس وخفاء، بالإضافة إلى ما في(الياء) من مد لين يناسب ما في صوت المرأة العاشقة التي تحاول إغراء من أمامها، ومعلوم أن المرأة إذا وقعت تحت سيطرة نشوتها، مالت للرقة في حديثها، والهمس به لإغراء من تريد.

ولم تكتف امرأة العزيز بلفظة:(هيت) وإنما أتت بـ(لك) لإظهار حرصها الزائد على بيان أن يوسف هو المراد بشخصه والمقصود بخطابها فـ(اللام) في" لك للبيان وكأنها تقول أنا لك خاصة فأقبل إليّ ، وامتثل أمري"[1].

١. الكشاف: ٢/ ٤٥٥ ، نظم الدرر: ١٠ / ٦٠ .

المطلب الثاني
لحظة اطلاع زوجها على أمرها عند الباب

يقول تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف: ٢٥)

عرض السياق والمعنى:

أتى كلام امرأة العزيز هنا في سياق حديثها مع زوجها حينما اطلع على أمرها، حيث وجدت نفسها في مأزق، إلا أنها تمالكت أعصابها، وبادرت بالكلام في محاولة منها أن تدبر لنفسها مخرجا، وتلصق التهمة بسيدنا يوسف عليه السلام.

من بلاغة كلام امرأة العزيز:

من الملاحظ هنا أن امرأة العزيز ظهرت عليها علامات الجرأة وشدة المكر، حيث أخذت زمام البداية وابتدرت زوجها بالكلام ولم تتلعثم، على الرغم من أنها في موقف مروع "تذهب فيه كل فطانة، ويتزعزع كل ثبات، ويطير فيه قلب الجريء، فإذا بكلامها لا يتضمن إلا ما يدل على براءتها من كل إثم، والطهارة من كل سوء"(١) حتى تخيل زوجها أنها على الحق، بسبب ما أظهرت من مكر الأنوثة وصمودها الهائل للدفاع عن كيانها، فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا يدل على أن جوابها كان حاضرا، "إذ كانت تعيش فى هذه المحنة أياما وليالى، وتفكر فيها وتقلّبها على جميع وجوهها واحتمالاتها، ومن هذه الاحتمالات أن يعلم زوجها بالأمر، أو يضبطها متلبسة به.. فلما وقعت الواقعة، وجدت الجواب الذي أعدته"(٢)، ولا

---

(١) يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، لأحمد عز الدين عبد الله خلف الله: ٨١، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ =١٩٧٨م.

(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٦ / ١٢٥٩ .

أدل على ذلك أن كلامها لم يتخلله وقف يدل على تلجلج أو تردد، بل جاء خاليا من أي علامات الوقف فخرج الكلام دفعة واحدة، ولعل هذا يكشف عن طبع من طباع النساء فهن إذا أردن فعل شيء لم يفارق فكرهن، بل يظللن مشغولات به حتى يصلن إليه.

وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال سائل أثير في ذهنه بعد أن سمع : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فقال: فماذا حدث عندما ألفَيا العزيزَ عند الباب؟ فقيل: ﴿قَالَتْ ...﴾

وبدأت كلامها بـ(ما) والتي تحتمل أن تكون نفيا أو استفهاما، إلا أن السياق يقوي كونها نفيا؛ لأنها ذكرت العقاب فيكون قصدها بناء كلامها على القصر بطريق النفي والاستثناء بغرض إثبات أن الذنب متقرر في حق يوسف . عليه السلام . ، كما أن أسلوب الاستثناء مكنها من أن تقرر الحكم الذي تريده، دون أن تدع لزوجها فرصة للتفكير فيما ينبغى أن يواجه به هذا الموقف، فجعلت الحل حاضرا بين يديه، وأغنته عن التفكير، في حين أن الاستفهام يحمل تفويضا لزوجها للحكم على يوسف، فقد يصدر منه ما لا يروق لها، وما يبعد يوسف عنها كالقتل أو البيع، فحددت نوع الجزاء؛ حرصا على الإبقاء على حياته.

كما أنه لو حملت (ما) على الاستفهام؛ لأسبغ كلامها بدلالات تتضمن إثارة مشاعر زوجها وإلهاب نفسه وتحريك نخوته، وهذا أدعى لإيقاع أغلظ العقوبات على يوسف، ولعل هذا لم يكن مرادها؛ لهذا لم تصرح باسم يوسف . عليه السلام . وإنما "أفرغت كلامها في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها"(١)، كما أن عدم التصريح باسم يوسف . عليه السلام . يحمل قصد العموم، ويشير إلى أنّ كل من أراد بأهلك سوءًا حقه أن يسجن أو يعذب؛ و ذلك أبلغ في تخويف

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٥٦.

يوسف [١] وحمله على الرضوخ إلى رغباتها، كما أنها كرهت التصريح باسم يوسف "صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم".[٢]

والتعبير بالاسم الموصول (مَنْ) جعل التركيز يتوجه إلى الفعل لا إلى الفاعل، وكأنها تكره أن تزج باسم محبوبها بصورة مباشرة وسط الاتهام، ودل الفعل (أراد) بزمنه على أنها جعلت صدور الإرادة المذكورة عن يوسف . عليه السلام . أمرا محققا مفروغا عنه"[٣]، غير مطروح للمناقشة ؛ لهذا لم تطلب التحقيق فيما ارتكبه، كما دل الفعل بمعناه على أنها أرادت أن تخبر بأن ما كان من يوسف . عليه السلام . لم يتعد حد الرغبة والإرادة .

ولاحظ أنها كنّتْ عن نفسها بـ:﴿ بِأَهْلِكَ﴾ ولم تقل:(بي) فلم تخصص نفسها بإرادته للسوء، ويرى الإمام أبو السعود أن "ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظام للخطب، وإغراء له على تحقيق ما يتوخاه بحكم الغضب والحمية "[٤]، إلا أن الناظر للسياق قد يلحظ خلاف هذا المقصد من التعبير بـ(الأهل) فمن المعلوم أن قولها: ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ أعم من(من أراد بي) فكأنها أرادت أن تعمم كلامها على الرغم من أن هذا الموضع يكون التخصيص فيه أدق وأحرى، إلا أنها تركت التخصيص وقصدت التعميم؛ لتُدخل في كلامها أطرافًا كثيرة، فتصرف ذهن زوجها عن تصور الفعل الحقيقي، وحقيقة الحدث حيث التعرض لشرفه وإرادة الفاحشة،إلى أمور أخرى أقل حدة وهذا من قبيل تمييع القضية والتمهيد لما ستسوقه من كلام، ويتناسب مع مقدار حبها والرغبة في الإبقاء عليه، فمعلوم أنها لا تريد أن يستشيط زوجها غضبا، بل تريد مجرد نزول زوجها على رأيها دون زيادة في العقوبة .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٤٥٩.

(٢) مفاتيح الغيب : ١٨ / ٤٤٥

(٣) إرشاد العقل السليم :٤ / ٢٦٨

(٤) السابق :٤ / ٢٦٨

ويسير كلامها مدفوعا بحبها ليوسف وحرصها على بقائه فتقول: ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا﴾ فعبرت بلفظ (السوء) دون أن تنسب إليه طلب الفاحشة على سبيل التصريح، وإنما ذكرت كلاما مجملا مبهما؛ لأن (سُوءًا) يتسع معناه ليشمل الإساءة بالضرب والشتم والامتناع عن تنفيذ الأمر، كما أنه يشتمل على مجرد التعرض لها بالنظر أو المغازلة، أما الفاحشة فهي موجهة لإرادة الزنى، كما أن تنكير لفظة (سوء) فيه إشارة إلى التقليل، وفي هذا محاولة منها لصرف ذهن زوجها وتشتيت فكره، حتى لا يعتقد أن الشكوى خاصة بالعرض.

ومن الملاحظ أن امرأة العزيز اشتمل كلامهاعلى حيلة " جمعت فيها غرضين هما تبرئةُ ساحتِها مما يلوح من ظاهر الحالِ، واستنزالُ يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مواتاتِه على مرادها بإلقاء الرعبِ في قلبه من مكرها طمعاً في مواقعته لها كرهاً عند يأسِها عن ذلك اختيارا"(١)، ويدل على ذلك أنها لما تمكنت من الموقف وابتدرت الكلام لم تتهم يوسف بإرادة الفاحشة وكأنها أرادت أن يظل حبل الود متصلا وباب الرجاء مفتوحا، فعبرت بألفاظ عامة وبحسن تخلص منها استطاعت أن تحول فكر زوجها من مجال البحث عما وقع من يوسف إلى اختيار نوع العقوبة التي يجب أن تنزل به، بل ولم تترك المجال متسعا لزوجها فلعل غيظه يدفعه للانتقام فاقترحت هي العقوبة النازلة به .

وفي قولها: ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ما يدل على حبها الشديد ليوسف فهي تخشى عليه الردى مما حملها على رعاية أمور منها:" أنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضا أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم، وأيضا قالت: إلا أن يسجن والمراد أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخفيف، فأما الحبس الدائم فإنه لا

(١) إرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٦٨

يعبر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين، ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى . عليه السلام . في قوله:﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾"[1](الشعراء : ٢٩)، كما أنها لم تعين العقوبة بل جعلت الأمر خيارًا فاستعملت (أو) دون (الواو) حتى تبقي مجالا للاختيار، وهذا الأمر يحتاج إلى وقت للبت فيه، وما شاع في كلام تلك المرأة من مبادرة بالاتهام و تعميم في الأفعال وإيهام في الأشخاص، ثم اقتراح الحلول التي من شأنها تخويف يوسف ـ عليه السلام ـ دون إلحاق أضرار جسيمة من شأنها أن تزهق روحه، كل هذه الأمور تتناسب مع الحال التي وجدت عليها، فهى تَعْرِف أنها مذنبة وخوفها على نفسها وعلى معشوقها هو الدافع الذي جعل الكلام يخرج على هذا النحو بما يدل "على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء"[2]، ومما يدل أيضا على شدة ذكائها بناؤها الفعل (يُسجن) للمجهول؛ لتظهر تأدبا في خطابها مع زوجها وكأنها تقول له: إنّ ما أقوله ما هو إلا مجرد اقتراح وأنت تختار من ينفذ وهذا يجعلها تكسب وده وتظهر تواضعا بين يديه فينزل عند رأيها، بخلاف لو أنها قالت: (إلا أن أسجنه) لأنها لو قالت هذا القول لجعلت من نفسها الآمرة الناهية صاحبة القرار وهذا من شأنه أن يستثير غيظه فلا يعمل بقولها، كما أنها لم تقل: (إلا أن أسجنه) كراهية أن تنسب لنفسها سجن معشوقها، كما أن البناء للمجهول يتناسب مع جو العموم المخيم على الموقف، فحينما بنت الفعل للمجهول لم يتحدد من سيقوم بالفعل .

ومن المعلوم أن هذه المرأة لم تكن راغبة في تعذيب يوسف وإنما ساقت العذاب في كلامها من أجل تهديد يوسف . عليه السلام . وإخضاعه لرغباتها؛ لهذا لم

---

(١) مفاتيح الغيب : ١٨ / ٤٤٥.

(٢) التفسير الوسيط ، أ.د/ محمد سيد طنطاوي : ٧ / ٣٤٥ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى ، ١٩٩٨ م

تصرح بطلب إنزال العذاب به فلم تقل: (أو يعذب عذابا أليما) بل قالت: ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومن الملاحظ أن كلام تلك المرأة أتى خاليا من المؤكدات؛ لأنه من المعلوم أن "الكلام يأتي مؤكدًا عند تردد أو إنكار المخاطب، فيؤتى بالتأكيد لإزالة هذا التردد والإنكار، إلا أن العزيز حتى لحظة التكلم " لم يدخل بعد حيز التفكير حتى يشكك فيما يسمع أو ينكره، فأرادت امرأته أن تبادره بقول مصبوغ بصبغة الحقيقة الواقعة، بلسان الواثق من نفسه. ولو جاءت – في قولها – بمؤكدات لوضعت نفسها في موضع المتهم المدافع عن نفسه... وهي لم ترد ذلك، بل أرادت وضع نفسها في موضع المدّعي؛ لتجعل يوسف . عليه السلام . في موضع المتهم "[1]، ولعل امرأة العزيز لم تكن تحفل بموقف زوجها، ولا يهمها اقتناعه من عدمه، فخرج كلامها خاليا من التوكيد مطابقا لما استقر في نفسها من عدم رعاية جانب زوجها، ولا أدل على ذلك مما فعلته بعد ذلك من أحداث.

(١) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم : ٢٧٥.

المطلب الثالث

كلام نسوة المدينة

قص القرآن حديث هؤلاء النسوة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يوسف ٣٠).

عرض السياق والمعنى:

بعد أن قص القرآن الكريم محنة يوسف . عليه السلام . وما تلاها من أحداث أثبتت براءته عليه السلام ، قص القرآن ما تلا ذلك من أمور دلت على تسرب أخبار القصة خارج قصر العزيز، وما حدث من مكر نساء المدينة بامرأة العزيز .

من بلاغة كلام نسوة المدينة:

المتأمل فيما ورد على لسان هؤلاء النسوة يجد أن هذا القول خطاب أثير في جلسة نسائية يكشف مع إيجازه عن جانب من مكر النساء ومكايدهن، وما تمليه طباع الغيرة عليهن، كما يظهر جانبا من جوانب حبهن لتناقل الأخبار والتعليق عليها خصوصا ما يتعلق بقضايا العرض والشرف، وأول ما يطالعنا في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وهذا يدل على أن من سيتحدث عنهن عدد قليل من النساء، بدليل استخدام جَمْع القلة[١](نسوة)، وهذا ما مكن امرأة العزيز من دعوتهن إلى قصرها، وآثر النظم استعمال صيغة المذكر مع الفعل (قال) مع جواز تأنيثه؛ لأنه مسند لجمع مؤنث، لما يتضمنه لفظ المذكر من معنى القوة، وبهذا يشير إلى ما يتمتع به هؤلاء النسوة من قوة ناتجة عن مكانتهن المرموقة، حيث قيل: إنهن "من بيوتات كبار الدولة"[٢]، كما أن التعبير بلفظ المذكر دون المؤنث يدل على أن النسوة لما تكلمن في

---

١. قيل: إن "عددهن كان خَمْسًا ، تفسير البحر المحيط : ٦ / ٢٦٦ .
٢. تفسير المنار : ١٢ / ٢٤٠ .

هذا الفعل ـ أعنى المراودة ـ ، فقد خرجن عن حدود حياء المرأة ؛ لِذا استعمل معهن صيغة التذكير .

وقوله: ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وصف للنسوة أو ظرف متعلق بـ(قال)، وهذا القيد يكشف عن الخطر المتوقع من هذا الكلام؛ لأنه يضفي على كلامهن جانب الصدق، ويجعل كلامهن أكثر تأثيرا في نفوس السامعين وأكثر تصديقا وأسرع انتشارا، بخلاف ما لو تحدث بهذا الكلام نساء من غير أهل المدينة فإن كلامهن لا يلتفت إليه .

وافتتحت النسوة كلامهن بـ(امرأت العزيز) ويعد هذا براعة استهلال في كلامهن وتحقيقا لمكرهن، وكشفا عن طبائعهن، حيث جاء الكلام مبنيا على تقديم المسند إليه (امرأت العزيز)، وهذا يشعر بأن النسوة قد تأكد لديهن الخبر، كما أن فيه ملامح الكيد حيث حقق التقديم نوعا من التشهير عن طريق ذكر امرأة العزيز مرتين، مرة باسمها الظاهر وأخرى بالضمير المستتر في الفعل (تراود)، كما أن الجملة الاسمية استهدفت التعريض بالوضع الاجتماعي للمرأة عن طريق ذكر موقعها من السلطة؛ ليحمل عليها الفعل المشين؛ فيتحقق بذلك مقصد المبالغة في التشنيع بها، وإنزالها عن كبريائها، ونشر فضيحتها.

كما أن ذكرها بـ(امرأت العزيز)؛ فيه دلالة أبلغ على قبيح فعلها؛ لأنها "ذات بعل، وصدور الفاحشة من مثلها أقبح من صدورها ممن لازوج لها، فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنيء قد تعذر في مراودة الأخدان، فهي شخصية نسائية مرموقة في المجتمع، اكتسبت منزلتها من كونها زوجة لرجل سياسي له مكانة عالية ومنزلة رفيعة؛ فهو عزيز مصر ورئيسها وكبيرها ومعلوم أن "النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجرى لهم، من أحداث، وإشاعة الخبر تكون أشد وأسرع إذا تعلقت بأصحاب المقامات العالية من ذوي

الأخطار؛ لأن عناية الناس أميل لمعرفة أحوالهم"[1]، وكل هذا يبين حرص هؤلاء النسوة على تعمد اختيار نوع من الخطاب الفاضح، بغرض التشهير بتلك المرأة وكشف عوراتها، فما إن وجدن الفرصة سانحة للنيل منها، والتشهير بها، حتى تجاذبن أطراف الحديث، موجهات سهامهن لما امتازت به عنهن، آملات أن يصل الحديث لمسامع زوجها فينكل بها، وهذا من مكر النساء إن أردن السوء بمن هنّ فوقهن، بالوقوع في عرضها ونشر أسرارها وإثارة الناس والمجتمع عليها.

ومن الملاحظ أن النسوة استخدمن لفظة (امرأة) دون زوجة بسبب ما اعترى الحياة الزوجية من فقدان لبعض مقوماتها وهو العقم، وقد يكون قد قصدن استعمال لفظة (امرأة) دون غيرها بسبب ما استشعرته النسوة من انفصام عرى الزوجية، وفتور العلاقة بين الزوجين خصوصا بعد تلك الواقعة، كما أن استعمال لفظة (امرأة) هنا يتناسب مع رغبتهن في إظهار ذم تلك المرأة والكيد منها وإظهار كل ما يشينها ويقدح في حقها، ويلحق العار بها ويهدم مكانتها بين النساء العاليات، وكأنهن يقلن: إنها لا تصلح لأن تكون زوجا لهذا العزيز .

وقولهن: ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ فيه عدول عن الماضي للمضارع بغرض استحضار الحدث بصورته العجيبة، ومعلوم أن المضارع أقدر الصيغ على تصوير الحدث واستحضاره أمام العين وكأنها تراها، وهذا الاستحضار يتناسق مع قصد النسوة من ذم تلك المرأة وتوجيه اللوم لها والتشنيع بصنيعها، كما أن هذا الذم أتى من جهة أن المضارع جعل فعل المراودة لم يكن شيئا عارضا طرأ وانتهى، بل جعله عادة لها وسجية فيها وشأنا من شئونها فهو مستمر متجدد، كما أن حرص النساء على التعبير بالمضارع هنا يكشف عن طبيعة

(١) يراجع: البحر المحيط :٦/ ٢٦٦. روح المعاني: ٦ / ٤١٦، ٤١٧، وبدائع التفسير :٢/ ٤٧٠. بتصرف.

نسائية تتمثل في أنهن إذا ما تناولن خبرا ذا بال لا يقفن عند حد السرد، بل تجد منهن حرصًا على إعمال الخيال واستحضار مشاهد القصة ورسم دقائق الحدث، وقد حققن جزءا من ذلك بالتعبير بالفعل المضارع.

كما أن تعبيرهن يظهر حبهن في زيادة النكاية بدافع الغيرة، ومعلوم أن الغيرة نزعة فطرية في النفس البشرية وهي أشد ماتكون عند المرأة ولا تكاد تخلو امرأة من هذا الوصف، لهذا حرصن على إسناد الفعل إليها دون يوسف . عليه السلام . ، فكأن هذا الخبر يحمل معنى التعجب كيف بامرأة متزوجة في مكانة مرموقة تقبل على هذا الأمر وتهين نفسها وتحقر مركزها وتكون هي المراودة لرجل عن نفسه؟، وكيف به وهو شاب في عنفوان شبابه يمتنع عن تلبية رغباتها ؟.

ونلاحظ أن النسوة لم يقلن: إنهن سمعن أن امرأة العزيز:﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ بل تناقلوا الخبر على سبيل اليقين، وكأنهن قد شاهدن الحدث، ولعل ذلك من طباع النساء حيث المبالغة في تناقل الأخبار، وهذا أيضا يعد لونا من ألوان مكرهن وأثر الغيرة في نفوسهن .

وفي قولهم:﴿فَتَاهَا﴾ وجه آخر من وجوه مكرهن، تحقق من جهتين: أولهما: إضافة الفتى لها" لا إلى العزيز لإبانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن الخادمية والمخدومية أو المالكية والمملوكية فليس بينها وبينه كفاءة، وعلى الرغم من ذلك فهي تراوده عن نفسه وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة في اللوم والمبالغة في القبح، كما أنه فتاها الذي في كنفها وبيتها، فحكمه حكم أهل البيت، وهذا يزيد من اللوم والمؤاخذة"(١)، ومبالغة في التبكيت والسخرية.

الوجه الثاني: تحقق من استعمال لفظ فتى دون غلامها أو مملوكها، وكأنهن يقصدن أن تلك المرأة لا تستطيع كبح جماح نفسها أمام شبابه، فافتتنت بجماله وبما يتمتع به من فتوة .

---

(١) روح المعاني :٦ / ٤١٦ ، بدائع التفسير : ٢ / ٤٧١ .

وبهذا نجحت النسوة بمكر الأنوثة أن تجمع بين طرفي الحدث في صورة متناقضة مما ترتب عنه مفارقة استوجبت الذم للمرأة، حيث جعلن المرأة صاحبة السلطة والسيادة طرفًا أول وذلك في (امرأت العزيز)، وجعلن يوسف . عليه السلام . الفتى اليافع ملكا لها، وهذا من شأنه أن يمنعها من هذا الفعل، ثم تأتي مفارقة أخرى وهي أنهن جعلن المبادرة من المرأة صاحبة السلطة والقرار، إلا أنها تفاجأ بإباء ورفض رغم امتلاكها زمام السلطة.

ولم يكتف النسوة ببيان أنها تراود فتاها فقط بل زادوا﴿ عَنْ نَفْسِهِ﴾ " فعن للمجاوزة، أي راودته مباعدة له عن نفسه، بأن يجعل نفسه لها وهذا كناية عن غرض المواقعة"(١)، وهذا إيماء منهن بأن امرأة العزيز قد بذلت قصارى جهدها للوصول إلى مبتغاها، والظفر بما أرادت ، وهذا يتسق مع التعبير بالفعل المضارع (تراود) .

ويكشف القرآن عن طابع إنساني يكثر وجوده عند النساء وهو أن نقل الأخبار عندهن لا يقف عند حد تلقي الخبر باللسان، بل يصاحبه حب إشاعته بصورة تخالطها المبالغة في سرد الحدث مصحوبا بأحكام مستنبطة تخرج منهن بدوافع متعددة كالغيرة والكيد، فقال حكاية على لسانهن: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وهذا القول يختلف عما سبقه حيث إن قولهم: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ لم يسمع به النسوة وإنما هو من إضافاتهن بغرض إضفاء زيادة في لوم امرأة العزيز، والتشنيع بها، لهذا فقد راعين فيه أمورًا ليست فيما سبقه، فإذا كان فعل المراودة قد تناقلنه من داخل القصر وعلمن به ودار على ألسنتهن للتشهير وحبا للطبائع النسائية من تكرار ما سمعت، فلم يحتج إلى توكيد، وإنما أتى على صورة الخبر الابتدائي، بخلاف إصدار حكم لم ينقل

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ): ٣ / ٢٣٢، تحقيق عبد السلام عبد الشافي: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ، والتحرير والتنوير:١٢ / ٢٥٠ .

عن أحد وإنما هو من ادعاءاتهن، فأتي الكلام مؤكدا لغرض تقوية هذا الحكم في نفوس بعضهن البعض، خصوصا أن الخبر سيفصح عن مقدار مبالغ فيه من الحب مما قد يقابل بإنكار سامعيه؛ لذا حرصن على أن يأتي كلامهن مصدرا بـ(قد) الداخلة على الفعل الماضي قولهم: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا﴾ للدلالة على تحقق وقوع الفعل، وتصوير ما يعتلج في صدور بعضهن من دهشة وتعجب بسبب وقوع تلك المرأة في حب هذا الفتى، وفي التعبير بـ: ﴿ شَغَفَهَا﴾ ما يدل على قصدهن في المبالغة في ذمها وإلحاق العار بها، "فالشَّغافُ غِلافُ القَلْب وهو جلدة دُونَه كالحجاب"[1] وعلى هذا يكون ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ كناية عن شق حبُّ يوسف . عليه السلام . لشغاف قلبها واستقراره بفؤادها حتى ملك زمام أمرها، وبهذا يكون النسوة قد بالغن في وصف حبها لفتاها، وقيل : إن الشغاف هو حَبّة القلب وسُوَيْداؤه[2]، وعلى هذا المعنى يكون قدر الحب أعظم وتملكه منها أشد وأقوى وتكون المبالغة أظهر .

وفي إسناد فعل الشغف إلى ضمير(فتاها) ونصب(حبا)على التمييز مجاز عقلي علاقته السببية.

وقد يكون مرادهن "أن حبه صار شغافاً لها، أي حجاباً و ظرفاً محيطاً بها"[3]،فكأنه قد أحاط بقلبها كما يحيط به الشغاف، فلم يترك به منفذا ليصل منه حب غيره، لذا أتى بـ(حبا) نكرة؛ للدلالة على الكثرة والتعظيم، فهو حب عظيم بلغ غاية مكنته أن يصل إلى أعماق قلبها .

وفي استعمالهن التمييز المحول عن الفاعل في: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ بدلا من (قد شغفها حبه) ما يدل على إرادتهم المبالغة والشمول وكأنهن أردن أن حبه قد شاعَ في قلبها، واستولى عليه وأَخذَه من نواحيهِ، وأنه قد استغرقه وعمَّ

(١) لسان العرب مادة (شغف) .
(٢) السابق: مادة (شغف) .
(٣) نظم الدرر: ١٠ / ٧١ .

جُمْلَتَه، حتى لم يَبْقَ مكان لغيره، فسيطر على كل كيانها حتى صار مميزا لها، كما أن أسلوب التمييز أقوى في دلالته لما فيه من إيضاح بعد إبهام ، وبهذا فقد جمعن حشدا من الدلالات التي من شأنها أن تصل بكلامهن إلى حد كبير من المبالغة، مما يعود علي امرأة العزيز من تشهير بالعيب والنقيصة .

وتختم النساء حديثهن بتقييم للحدث وذلك في قولهن: ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وهذه " الجملة مقرّرة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع، وتسجيل عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم"(١)، ولما كانت هذه المقولة مشتملة على حكم آخر لم ينقل إليهن من أحد وإنما هو من محض ادعاءاتهن، فقد اشتملت على عدد من التوكيدات منها: التأكيد بـ(إن) و(اللام)، والتعبير بالجملة الاسمية، وتكرار الإسناد مرة في (إنّا) ومرة في (نراها)، وهذا التكرار إذا كان في ذاته تأكيدًا فإنه أيضا قد حقق التأكيد من ناحية المعنى، حيث بين أن جميعهم قد اتفق على هذا الحكم فلم تشذ إحداهن عن هذا الحكم، ولعل ذلك مرجعه إلى أنهن اتفقن جميعا في مرادهن وهو الكيد بتلك المرأة بدافع الغيرة، فإذا تآلفت الغايات واتفقت الطباع توحدت الآراء .

ومن دلالات التأكيد التعبير بالرؤية عن العلم،أي" نعلمها علمًا متاخمًا للمشاهدة والعِيان... و لم يقُلن إنها لفي ضلال مبين إشعارًا بأن ذلك الحكمَ غيرُ صادر عنهن مجازفةً بل عن علم ورأي مع التلويح بأنهن متنزّهاتٌ عن أمثال ما هي عليه". (٢)

وفي التعبير بـ(في) الدالة على الظرفية استعارة تصريحية تبعية في الحرف شبهت الضلال بمظروف، يحيط بامرأة العزيز من كل جانب بما يشعر بانغماسها في الضلال، وتمكن الضلال منها، وفي مجيء بـ(ضَلَالٍ) نكرة منونة؛ بيان أنه ضلال عظيم فالتنوين للتفخيم .

---

(١) روح المعاني : ٦/ ٤١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٧١ .

وفي وصف الضلال بأنه (مُبِينٍ) تأكيد على ذمها وتشهير بأمرها؛ لأنه لشدته لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، و لو كانت في ضلال فحسب لكان في هذا ذم، فما بالك لو كان هذا الضلال واضحا لا يخفى على أحد؟، ولقد كشف صدر الآية عن صحة الحكم ورجحانه عن طريق خلو الفعل (قال) من علامة التأنيث، ومجيئه على صيغة التذكير التي تشير إلى رجحان عقولهن ، يقول الإمام الكفوي :" أَلا ترى النسْوَة لما وصفوا زليخا بالضلال الْمُبين . وَذَلِكَ من شَأْن الْعقل التَّام . نزلت منزلَة الذُّكُور بتجريد القَوْل من عَلامَة التَّأْنِيث"(١) .

وبهذا يكون النظم الحكيم قد صور أجواء هذا اللقاء بين تلك الصويحبات معبرا عما جال في نفوسهن وما تداولنه من أحاديث بحذق وإتقان؛ كاشفا عن سمات أحاديثهن وخصوصياتها، وتصوير مشاعرهن خاصة مشاعر الغيرة والحقد .

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، (المتوفى:١٠٩٤هـ): ٨١٨، تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة – بيروت

المطلب الرابع

كيد امرأة العزيز بالنسوة

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ سورة يوسف: الآيتان (٣١، ٣٢).

عرض السياق والمعنى:

لما بلغ امرأة العزيز ما قالته النسوة في حقها من عيب بقصد إلصاق الفضيحة والإهانة بها، سارعت بإعداد خطة محكمة ومكيدة مدروسة، فهيأت لهن مكرا أبلغ من مكرهن لرد كيدهن والإيقاع بهن، حيث عملت على استدراجهن إلى مجلس يتمكنّ فيه من مشاهدة يوسف . عليه السلام . عن قرب فيُعاينَّ بأنفسهن مقدار جماله، وما يحدثه في النفوس فتتخذ من انفعالهن عذرا لها ترد به كيدهن وتدافع عن نفسها من الاتهامات التي وجهت إليها.

من بلاغة كلام امرأة العزيز ونسوة مصر:

الناظر إلى هذا السياق القرآني يجد أنه قد اشتمل على كلام لامرأة العزيز، وكلام لنساء مصر في مشهد جمع بينهما في قصر عزيز مصر، وقد بيّن السياق أن سبب هذا اللقاء هو ما وصل إلى مسامع امرأة العزيز من كلام تلك النسوة في حقها، ومن الواضح أن هذا الكلام وصل إلى زليخا بسرعة بدليل مجيء (الفاء) الدالة على السرعة وذلك في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، ولعل ذلك يشير إلى أن النساء إذا تلقين خبرا بألسنتهن، وقلنه بأفواههن سرعان ما طار وذاع بين الناس، وعدى الفعل (سمع) بـ (الباء) على الرغم من أنه يعدى بنفسه؛ لتوكيد السماع، وللدلالة على أن امرأة العزيز لم تنتظر حتى تسمع كل ما قالته النسوة، ولكن بمجرد سماعها بمكرهن شرعت في تدبير ما يرد هذا المكر، كما أن فيه دلالة على أن امرأة العزيز لم تسمع

مكر النساء بنفسها وإنما نقل إليها بواسطة .

والواضح أن هذه المرأة قد دبرت مكيدة قوية لهؤلاء النسوة؛ لتبكتهن بالحجة، وترد كيدهن، وما ذلك إلا لأن المكر والكيد من أسلحة النساء يلجأن إليه من أجل التغلب على ضعفهن، فهو مظهر من مظاهر الضعف لا القوة ، لأن القوي لا يسلك سلوكا خفيا، أما المرأة فبحكم فطرتها وضعفها قد تسلك سلوكا غير صريح ؛ للوصول إلى ما تريد، والمكيدة التي أعدتها امرأة العزيز فاقت ما فعلته النسوة، حيث لم يقف مكرها عند حد الكلام ، فجمعت بين الفعل والقول؛ ليكون الرد أبلغ والحجة أقوى، وفي هذا دلالة على أن "لربات القصور القدح المعلى في المكر والكيد"؛ لأنهن أكثر تفرغا من غيرهن مع كثرة اختلاف الكيادات إليهن"[1]، وقد كشف القرآن عن جانب الفعل الذي مهدت به لقولها وذلك في قوله تعالى:﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ ...﴾ فالتعبير بـ(أعتدت) يشعر بشدة اهتمامها؛ لأن النظم نسب الفعل إليها على الرغم من أنها آمرة وليست ممن يقوم بهذه الأعمال، وإنما هذا من قبيل المجاز العقلي حيث أسند الفعل إلى سببه مبالغة في اهتمامها وبيان حرصها على إتمام هذا الفعل، وجاء التعبير بالماضي؛ ليدل على سرعة الإعداد والتجهيز، والتعبير بـ (أعتدت) دون (أعدت) يعد من باب مناسبة اللفظ لمعناه؛ لاشتمال الأول على (التاء) و(الدال)وفيه دلالة عى تنوع ما أعدته، وهذا لم يكن ليتحقق في (أعدت).

ومما يدل على شدة دهائها وعظيم مكرها حرصها على أن تقع السكين في يد كل واحدة، بدليل قوله تعالى :﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، لأنها أرادت استثمار السكاكين في إقامة الحجة على النساء لكسر شوكتهن، وإسكات مقالتهن، وهذا الأمر لم يكن يهمها في المتكأ .

ثم يكشف النظم عما جرى على لسانها من كلام خلال هذا المشهد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ ليوضح من خلال هذا الكلام كيف دعت

(١) روح المعاني : ٦ / ٤١٥ .

امرأة العزيز سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ للدخول على النسوة، والتعبير بفعل الأمر ﴿اخْرُجْ﴾ يصور هذا الموقف بشكل دقيق، حيث كشف عن جانب من مكر امرأة العزيز، وصوّر مدى تعاليها على النسوة ، كما رصد المكان الذي أعدته لاستقبال النسوة، وكذا مكان انتظار يوسف . عليه السلام . فجعلت "مجلس النسوة خارجا، وهي بذلك تومئ إلى تمكنها من يوسف . عليه السلام . بحيث تنبه إلى أن مكانه داخل القصر في أعماقه، وجعلت النساء في الخارج "[1]، تحقيرا لهن وردا على مقولتهن.

وَعُدِّيَ فِعْلُ الْخُرُوجِ بِحَرْفِ (عَلَى) دون (إلى) على الرغم من أن ظاهر الموقف يوحي بمناسبة (إلى) للسياق لأن (اخرج إليهن) فيه خروج مقابلة ولقاء، لكن من بديع النظم أنه فاجأ المتلقي بقوله: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنّ﴾، وهنا المحز من البلاغة في فن القول والبيان من موافقة الكلام لمقتضى الحال؛ حيث عبر النظم عما عزمت عليه امرأة العزيز وما قصدته وقد كان، وهو أنها لاتريد من يوسف أن يخرج إلى النسوة خروج مقابلة بالأبدان فحسب، إنما تريد من وراء خروجه أن يكون خروج فتنة واستعلاء، تسلب له القلوب، وتؤسر له الأرواح، وتسيل له الدماء، كما أن الخروج إذا "كان بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يعدى بـ(على)"[2]؛ لهذا يكون قوله تعالى: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنّ﴾ يشعر بفوقية هذا الخروج، ويوحي بأنه خروج فيه مغالبة واستعلاء ، ويدل على علو قدر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ في الجمال والتميّز، كما أنه يشعر بالكبر والتعالي المستفاد من معنى الاستعلاء المدلول عليه بـ(على)، وهذا يومئ إلى أن امرأة العزيز أرادت أن تباهي بيوسف

١ـ مع البيان القرآني في سورة يوسف ، د/ إبراهيم عوضين: ٥٨ : ٥٩، دار السعادة، القاهرة، ط الأولى ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١م.

٢ـ مسائل الرازي وأجوبتها من غريب آي التنزيل / لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١٨٦، تحقيق، د/ حمدي الشيخ، دار اليقين، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م.

أمامهن، فجعلته في خروجه يعلوهن، وهذا يدل على علمها بما سيحدثه جماله فيمن حضر من النسوة، فالنساء أخبر الناس علما بأحوال بعضهن.

كما أن تعدي الفعل اخرج بـ(على) أدى إلى اتساع المعنى، حيث جعل الفعل يتضمّنَ" مَعْنَى (ادْخُلْ) لِأَنَّ الْمَقْصُودَ دُخُولُهُ عَلَيْهِنَّ لَا مُجَرَّدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ"[١].

والواضح أن امرأة العزيز أرادت أن توفر عنصر المفاجأة، ويظهر ذلك فيما أعدته من سبل الراحة ووفرة الطعام، ثم الخروج المفاجئ، وقد جاء النظم؛ ليعبر عن ذلك إذ يقول: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فالكلام به إيجاز بالحذف والتقدير: فخرج عليهن فرأينه، وإنما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن، وإيذانا "بسرعة امتثال يوسف ـ عليه السلام ـ لأمرها فيما لا يشاهد مضرَّتَه من الأفاعيل ."[٢]

ويأتي مشهد الرؤية في قالب شرطي يحمل مضمونه مراد تلك المرأة، فهي فعلت ما فعلت من أجل هذا المشهد وتلك اللحظة، وقد صدر الشرط بـ(لما)؛ للدلالة على أن تعظيمهن لسيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ تزامن وجوده مع تزامن حدوث الرؤية، وعلى هذا تكون تلك الأداة قد كشفت عن نجاح المؤامرة التي دبرتها تلك المرأة، بدليل ماعطف على جواب الشرط، ومعلوم أن ما عطف على الجواب داخل فيه يتمم معناه ويكمل المراد منه، فإذا كان الجواب (أكبرنه) قد دل على ما وقع في نفوسهن من تعظيم له، فإن ما عطف عليه دل على هذا التعظيم، وذلك عن طريق أمرين أولهما: تقطيع أيديهن، والثاني: القول الذي صدر منهن في حقه، وكلا الأمرين قد جاءا في تركيبين بليغين يدلان على مقدار تأثير جمال يوسف . عليه السلام . على تلك النسوة، وقد عبر القرآن عن الأمر الأول بقوله:﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وأتى به على طريقة الاستعارة

١. التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٦٢ .
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٤ / ٢٧٢ .

التصريحية التبعية في الفعل، حيث استعير القطع للجرح؛ مبالغة في شدته، وكأنهن لما رأين يوسف وحدث لهن ماحدث من دهشة أخذن يقطعن في أيديهن بدلا من أن يقطعن الفاكهة، وقد صور النظم هذا المشهد بدقة عالية وبلفظة واحدة وهي (قَطَّعْنَ)؛ لأن السامع قد يعتقد أن النسوة ساعة مست السكين أيديهن فأحدثت جرحا جعلهن ينتبهن للسكين وما أحدثته بهن، إلا أن هذه اللفظة أوضحت أن تأثير جمال سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ظل مسيطرا على عقولهن، فأفقدهن الإحساس بألم القطع حتى صارت السكين تحز في اليد وتغور في اللحم حتى أحدثت جرحا عظيما.

والمقام الآن أصبح ممهدا للإفصاح عما دار في مكنون النسوة، فلم يعد أمامهن بد من أن يتلفظن بما يجدن في نفوسهن تجاه يوسف ـ عليه السلام ـ فخرج منهن أول خطاب يحمل سمة الإعجاب والتنزيه فـ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾، وإسناد القول لهن جميعا دون بعضهن؛ لبيان أن التأثير كان عاما والاندهاش كان جماعيا، فكأنهن قلن بلسان واحد: حاش لله ، ومثل هذا يحدث عندما ينفعل الناس بحدث معين يؤثر فيهم جميعا فتجدهم ربما ينطقون جميعا بكلمة واحدة من غير ترتيب سابق بينهم .

و"(حاشَ لِلَّهِ) تَرْكِيبٌ عَرَبِيٌّ جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ يُرَادُ مِنْهُ إِبْطَالُ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَبَرَاءَتُهُ مِنْهُ"[1]، وتحتمل (حاش) أن تكون فعلا من حاشى يحاشي أي يتباعد، ويحتمل كونها حرفا، وباعتبارها فعلا " فلابد له من فاعل، وفاعله يوسف ـ عليه السلام ـ ، كأن المعنى : بَعد من هذا الذي رمي به لله، أي لخوفه من الله ومراقبته أمره"[2]، وعلى هذا " تكون اللام للتعليل أي : حاشى يوسف أن

١. التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٦٣ .
٢. الحجة للقراء السبعة لأبي على الفارسي : ٤ : ٤٢٢ ، تحقيق : بدر الدين قهوجي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ = ١٩٩١ م .

يقارف ما رمته به طاعةً لله [١] وعلى هذا التخريج يكون التنزيه لسيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ والاعتراف له بالنقاء والطهارة، وذهب الإمام الزمخشري إلى أن (حاشا) "حرف جر، وضعت موضع التنزيه والبراءة، ومعناها براءة الله وتنزيه الله"[٢]، ويكون المعنى تنزيه الله عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله، وتكون اللام في(لله)؛ لبيان المنزه والمبرأ، [٣] وهذا الأسلوب القرآني يكشف عن وجه من أوجه الإعجاز القرآني، حيث جاء على نمط يحتمل تنزيه الله ـ عز وجل ـ ويحتمل تنزيه سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ..

وجاء قوله تعالى: ﴿ما هذا بشرا﴾؛ لبيان أمر التنزيه السابق، ومن يدقق النظر في قول النسوة يجد أن النظم قد جاء على لسانهن بقول واحد، ولعل ما حداهن إلى هذا الخطاب الجماعي والحكم الصريح هو ما رأينه من صورة غير مألوفة فـ " قلن: ﴿ما هذا بشرا﴾؛ نافين عنه البشرية؛ لغرابة جماله؛ لأنهن لم يرين في حسن صورته من البشر أحدًا" " [٤]

وجاء قول النسوة منفيا بـ(ما) الداخلة على الجملة الاسمية ذات الخبر المنصوب؛ لتتسع دلالة التركيب، يقول الإمام الفراء ﴿بَشَرًا﴾:"نصبت؛ لأن (الباء) قد استعملت فيه، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، فلما حذفوها أحبّوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه فنصبوا على ذلك"[٥]، وهذا يدل على أن النظم قصد إلي حذف (الباء) مع التلويح بمكانها عن طريق نصب الخبر؛ ليستفيد السياق بدلالة الحذف، وإذا كانت الصناعة النحوية تقف عند هذا القول، فإن البلاغة لا تقف عند حدود ما تقتضيه الصناعة النحوية، بل

---

١. تفسير البحر المحيط :٥ / ٣٣٣ .
٢. الكشاف : ٢ / ٤٦٥.
٣. ينظر تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٤ : ٢٧٢ .
٤. جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (المتوفى:٣١٠هـ):٨٤/١٦ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٥ . معاني القرآن: ٤٢/٢.

تقتضي البحث عن سر الحذف، ومعلوم أن التعبير القرآني تعبير فني مقصود،فكل كلمة بل كل حرف إنما وضع لمقصد ... وإنما يحذف القرآن من الكلمة لغرض ولا يفعل ذلك إلا لغرض"[1]، وباستقراء الآيات التي ورد فيها خبر "ما: مقرونا بـ(الباء) والآيات التي استغنى الخبر فيها عن الباء نجد أن (الباء) تذكر في مقام الجحد والإنكار، فتأتي للدلالة على التوكيد ورفع الشك، وتحذف في المقامات التي لا تحتاج إلى توكيد، ومن هنا فإن حذف (الباء) مع التلويح بمكانها عن طريق نصب الخبر في قول النسوة، يدل على أن هذا المقام ليس له حاجة بمدلولها، فالنسوة لما دخل سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ عليهن وعاين ما أعطاه الله من جمال لم يعتدن مشاهدته، لم يرد في خاطرهن قط أن أحدا قد يظن أن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ من البشر، فما كان منهن إلا أن يعترفن أن جماله ليس جمال بشر، ومن الواضح أن التأثير كان تأثيرا عاما بدليل أن القول خرج منهن جميعا ولو كان هناك مزيد من الحاضرات لكان قولهن نفس القول؛ إذن فهي حقيقة لا تحتاج إلى جهد في إثباتها؛ لذلك لم يعمدن إلى تأكيد هذا الأمر، ويؤكد ذلك أن السياق القرآني استعمل في نفي هذا الأمر (ما) وهي أضعف من غيرها فالنفي بـ(إن) آكد منها [2]، وهذا يفسر أيضا دلالة المغايرة في قوله: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فأتى بحرف النفي (ما) ابتداء فقال: ﴿ ما هذا بشرا ﴾ ثم عدل بعد ذلك إلى (إن) ولم يطرد السياق على نمط واحد، ويرجع هذا إلى أن نفي البشرية عن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ بعدما شاهدن جماله وما أحدثه من سلب لعقولهن، وتقطيع لأيديهن أصبح أمرا غير مشكوك فيه؛ لهذا جاء بـ(ما) النافية فحسب، وكأن هذا الأمر أصبح مستقرا في الفطرة غير مشكوك فيه، ولكن لما أثبت وصف

---

١ . بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د/ فاضل السامرائي: ٩، الطبعة الثانية، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م .

٢ . معاني النحو : ٢ / ٢٠٠ .

الملائكية احتاج إلى إمعان في التأكيد نظرا لأن إثبات صفة الملائكية لبشر غير مألوف، فوصفه بأنه ملاك قد يعترضه شك أو إنكار فأتى بـ (إن) مصحوبة بـ(إلا) ليفيد دلالتي النفي والإثبات معا، ليثبت له صفة الملائكية وينفي ما دونها؛ وبهذا تتلاقى في السياق دلالة حذف (الباء) مع دلالة النفي بـ(ما) فكلتاهما يدل على أن الجميع يقر بأن جمال سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ جمال فاق جمال البشر .

كما أن حذف النسوة (الباء) من كلامهن دل على عموم النفي ، فعندما حذف السياق (الباء) جعل النفي يتسلط على الخبر مباشرة، بخلاف لو أتت الباء؛ لأن النفي معها غير متسلط على الخبر بشكل مباشر ، وهيهات بين أن يقع النفي على الخبر مباشرا ، وبين أن يقع عليه بواسطة حرف جر، وكأنهن لشدة تأكدهن لا يحتجن واسطة ولا أداة يتمكن من خلالها التأكد من نفي البشرية، لوضوح هذا الأمر بشكل لا يداخله ريب .

وأتى حكم النسوة على يوسف في جملتين الأولى نصت على نفي البشرية، والثانية نصت على إثبات الملكية، مع أن المعنى قد يتحقق بالثانية؛ إلا أن الإفصاح عن الصفتين (البشرية، والملكية) أدى إلى مبالغة واضحة في ادعائهن عن طريق إبراز الضدين، وبهذا يكون الأسلوب القرآني أتى في كلام النسوة بنمط تجاوز المألوف من تشبيهات العرب،لأن النسوة " لما أردن وصف يوسف بالحسن شبهنه بالملك، والعرب يشبهون كل ما راعهم حسنه من البشر بالجن، فأدخل فيه فنا آخر لا يبدو للناظر للوهلة الأولى... وهو فن تجاهل العارف. [1]

ومن الملاحظ أن النظم ترك العطف بن الجملتين لما بينهما من كمال الاتصال، فالجملة الثانية ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ تحتمل أن تكون توكيدا أو

١ . إعراب القرآن وبيانه : ٤ / ٤٨٤ بتصرف

عطف بيان أو صفة للأولى، يقول الإمام عبد القاهر: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، مشابِكٌ لقولِهِ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ومُداخلٌ في ضِمْنه من ثلاثة أوجه : وجهان هو فيهما شبيهٌ بالتأكيدِ، ووجهٌ هو فيه شبيهٌ بالصفةِ.

فأحدُ وجهَيْ كونِه شبيهاً بالتأكيدِ، هو أنه إذا كان مَلكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان إثباتُ كونِهِ ملكاً تحقيقاً لا محالَة، وتأكيداً لنفي أنْ يكونَ بشراً.

والوجهُ الثاني أن الجاريَ في العرفِ والعادةِ أنه إذا قيلَ: ما هذا بشراً والحال حالُ تعظيمٍ وتعجُّبٍ مما يُشَاهَدُ في الإنسان مِنْ حُسْنِ خلْقٍ أو خُلُق، أن يكونَ المرادُ من الكلام أن يقال إنه ملك، حتى إنَّه يكون مفهومَ اللفظ، وإذا كان مفهوماً مِنَ اللفظ قَبْلَ أن يُذْكَر، كان ذكرهُ تأكيداً لا محالَة، وأما الوجه الثالث الذي هو فيه شبيهٌ بالصِّفة، فهو أنه إذا نُفَيَ أن يكونَ بَشراً، فقد أثبتَّ له جنسَ سِواه، إذْ منَ المُحالِ أن يخرُجَ من جنسِ البشرِ، ثم لا يدخُلُ في جنسٍ آخرَ. وإذا كانَ الأمُر كذلكَ، كان إثباتُه "مَلَكاً" تبييناً وتعييناً لذلك الجنسِ الذي أريدَ إدخالُه فيه."[1]

وعرف النسوة يوسف . عليه السلام . بالإشارة في: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بقصد التحديد الدقيق لمن سيوجهن له أحكامهن، وتمييزه أكمل تمييز بإحضاره في ذهن السامع؛ لقصد مدحه بإجراء أوصاف الرفعة عليه، ومعلوم أن تمييزه بالإشارة أدل على مدحه وتعظيمه؛ لأن الإشارة الحسية لايتأتى معها اشتباه أصلا، ثم كررن الإشارة؛ دفعًا لإمكان الغلط وتوهم غير المراد وتباين الموصوف في كلا الجملتين، وفيه أيضا دلالة على شدة تعظيمه وإجلاله.

وفي وصفهم (الملك) بـ(كريم) نوع من التوكيد على طهارة يوسف عليه السلام، لأنه عندما نفين عنه البشرية قد يخيل أنه خرج لصنف مذموم فأتى بـ(ملك)، ولفظ ملك قد يقصدن منه كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الظاهر وذلك

---

١ . دلائل الإعجاز : ٤٣٤ . بتصرف .

بسبب ما رأين من حسن فاق الوصف، وهذا لايرد عنه شبهة ولا يدفع عنه تهمة، فأتين بـ(كريم)؛ ليعالج الجانب الأخلاقي المتعلق بصفاء النفس ونقاء الروح لأن "لا يكون كريما إلا بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة". [١]

ومن الواضح أن امرأة العزيز لم يكن هدفها دفع التهمة عن نفسها بدليل أنها أفصحت بعد ذلك عن مرادها، ولم يكن مرادها دفع التهمة عن يوسف . عليه السلام . لأنه لم يتهم، ولكنها لماسمعت ما وجه إليها من لوم في حب يوسف" عظم ذلك عليها فجمعت النسوة " فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق؛ لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها"[٢]، وقالت لهن: ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، والفاء في (فَذَلِكُنَّ) رابطة لجواب شرط مقدر، والمعنى: إنْ كانَ الأمرُ كَما قلتنّ فذلكنّ الملكُ الكريمُ النائي من المراتب البشريةِ هو من عيَّرْتُنّني في الافتتان به"[٣] وعرفت يوسف عليه السلام بالإشارة لتميزه أكمل تمييز، واستعملت اسم الإشارة للبعيد لأسباب منها :أنها قصدت أن تقول لهن: إن ذلك العبد الذي صوّرتن في أنفسكنّ، ثم لمتنني فيه، لم تصوّرنه بحق صورته، بل ما خطر على بالكن كان بعيدا كل البعد عن حقيقته، وإن ظهر لكن الحق الآن فلا تَلُمْنَنِي بعد اليوم؛ لأن لومكن لي بعيد عن الصواب، وقد يكون المقصود من استعمال اسم الإشارة للبعيد هو أنها أرادت أن تبين أنهن حكمن علي يوسف بهذا الحكم من خلال نظرة واحدة ومشهد واحد، وهذا حكم . على الرغم من علو شأنه . إلا أنه بعيد عن الحقيقة لأنهن لم يرين من يوسف إلا جمال

---

١ . مفاتيح الغيب : ١٨ / ٤٥٠ . بتصرف.

٢ . السابق : ١٨ / ٤٥٠ .

٣ . إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٧٣.

ظاهره، فهن وإن كن وقفن على جانب فقد فاتهن جوانب كثيرة لم يقفن عليها من شأنها أن جعلت قلب امرأة العزيز يتعلق بيوسف حيث ترعرع في قصرها فرأت جمال باطنه، وصفاء سريرته، وعظيم عفته، وهذا من شأنه أن يجعل صورته الحقيقية بعيدة عن أذهانهن، ويحتمل "أن يكون لما رأين يوسف فأصابتهن الدهشة وقطعن أيديهن وقلن: ما هذا بشرا، بعد عنهن إبقاءً عليهن في ألا تزداد فتنتهن،...فأشارت إليه باسم الإشارة الذي للبعيد، ويحتمل أن تكون أشارت إليه بلفظ البعيد تعظيما ليوسف . عليه السلام . ورفعا لمنزلته في الحسن والجمال، واستبعادا لمحله فيه، وأنه لغرابته بعيد أن يوجد منه"[١].

وجاء التعبير عن يوسف عليه السلام . بالموصولية (الذي)؛ لأن النسوة لم يعرفن شيئا عنه سوى ما ورد في جملة الصلة (لُمْتُنَّنِي فِيهِ)، كما أن التعبير بالموصولية مكن امرأة العزيز من إجراء الصفة التي تريد أن تعيبها على النسوة، لذلك لم تقل (فذلك الذي راودته)، لأنها هنا بصدد لومهن كما لُمْنَها، وكأنها بهذه الصلة تذكرهن بما قلنه عليها لتوضح لهم خطأهم .

وقوله: ﴿لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يشتمل على حذف " لأن الذوات لا يتعلق بها لوم"[٢]، وهذا الحذف يدل على الشمول والعموم أي أنها تريد أن تنزل التوبيخ على كل ما دار بأذهانهن وألسنتهن، من حبها ليوسف وشغفها به، ومرادوته، واستعمال (في) الدالة على الظرفية يدل على تغلغل العلاقة، ويوحي بالمبالغة في تعلقها بيوسف حتى لامها اللائمون، وهذا يتآزر مع الحذف الموجود بعدها.

"ولما علمت امرأة العزيز أن النساء عذرنها، قالت مؤكدة استلذاذاً بالتهتك في حبه:﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُه﴾"[٣]، وأتى كلامها مشتملا على عدد من ألوان التوكيد منها القسم المحذوف، و(اللام) الداخلة على جواب القسم، وقد والتعبير بالماضي،

---

١ . الكشاف :٢ / ٤٦٧ ، البحر المحيط.٦ / ٢٧١ بتصرف

٢ . إعراب القرآن وبيانه : ٤ / ٤٨٩

٣ . نظم الدرر: ١٠ / ٧٤.

مع أن المخاطب غير منكر تلك الحقيقة بل مقر بها، إلا أنها أتت بهذا الحشد من التوكيدات؛ رغبة في تهديد النسوة وقتل أي محاولة مكر مازالت متعلقة بذهنهن، وكأنها تريد أن تقول لهن: إنها لم تعد تعبأ بكلامهن ولا تخشى أحدًا منهن، بل إن رغبتها في الإقدام على هذا الأمر قد زادت دوافعه وقويت رغبتها فيه .

وقد يكون التوكيد روعي فيه اعتبار المعطوف وهو (الاستعصام)؛ لأن إخبارها عن امتناعه وإعراضه عنها مع تحقق دواعي القبول التي منها كون يوسف . عليه السلام . عنده ما عند الرجال مما ركبه الله في طباعهم من ميل للأنثى، بل يزيد على ذلك أنه في عنفوان الشباب، ومعلوم أن شهوة الشاب أقوى من شهوة غيره وكثر اختلاطه معها وهو مازال عزبا لم يصرف طاقته، ولم يقض وطره الذي أودعه الله في نفسه، و المرأة هي التي دعته إلى نفسها وألحت عليه، وكانت ذات جمال، والجميلة تغري بالفاحشة أكثر من غيرها، وجمعت مع جمالها منصبا مرموقا فهي زوجة عزيز مصر، وذات المنصب يكون إغراؤها أكثر من غيرها وكان هو غلاما في بيتها ينفذ أمرها، غريبا في موطنه، كل هذه الأمور وغيرها جديرة بأن تجعل رفضه شيئا ينكره العقل ويشك فيه؛ لذا أتى كلامها مؤكدا ليرد الشك الذي سيقع في نفوس من سيسمعها.

وفي التعبير بـ(استعصم) مبالغة تدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها"[1]؛ فزاد"السين، والتاء للمبالغة "[2] وهذا يؤكد أن هذه المرأة بذلت جهدا شاقا في سبيل الحصول على ما تريد منه، الأمر الذي احتاج معه يوسف أن يستدعى قواه ويطلب مزيد العون للنجاة من شراك وكيد تلك المرأة.

---

١ . الكشاف : ٢/ ٤٦٧

٢ . التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٦٤.

ولعل ذلك يشير إلى أن النساء إذا سقطن في دائرة الشهوة واستسلمن لرغباتهن فإنهن يفعلن ما يخرجهن عن حيائهن، خصوصا إذا كن من أصحاب الترف والغنى، وهذا الأمر ظهر في كلام امرأة العزيز استشماخا بعظمتها، وتهديدا ليوسف . عليه السلام . فأتى كلامها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ حافلا بالمؤكدات التي منها: القسم المدلول عليه باللام في (لئن) ونون التوكيد الثقيلة في(ليسجننّ)، واللام ونون التوكيد الخفيفة في (ليكونًا)؛ لتجعل منه حكما مؤكدا نافذا معززا بمنصبها مدفوعا برغباتها، كما أن البَدْء بالقسم فيه استرعاء لانتباه المخاطبين وتهيئة لعقولهن؛ لانتزاع الشك من صدورهن في أن يكون فيما ادعته من سجن أو تنكيل أمر فيه كذب بسبب شدة شغفها به، كما أن "فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا، مع أنه عزيز مصر"[1]، وهذا يكشف عن نفسية المرأة ذات المنصب الرفيع، ومدى سيطرتها على زوجها وقدرتها على انتزاع زمام القيادة منه.

وبنت امرأة العزيز كلامها على الشرط؛ لأن سجنه أو تعذيبه ليس غايتها وإنما سيكون نتيجة لعدم نزوله على رغباتها، فإن انصاع لأمرها سقط العذاب من على كاهله، وكأنها باستعمالها أسلوب الشرط تعرض على يوسف صفقة ذات اتجاهين وعليه أن يختار، واستخدمت(إن) المفيدة للشك بدلا من(إذا) مع أن المتبادر للذهن أن تقول (إذا)؛ لأن سجنه من الأمور التي تقوى عليها ولا يشك في قدرتها في تحقيقها، إلا أنها استعملت (إن) لأسباب منها :أنها لا ترغب في سجنه ولا تعذيبه فهي لا تريد أن تجزم بذلك تخيلا منها أنه بعد ما رأى وسمع ما حدث فلن يرد لها طلبا، وبهذا لن تكون مضطرة لسجنه أو إذلاله، إلا أنها تعلم عن تجربة مدى عناد يوسف وجلده على التحمل، لهذا فهي حائرة شاكة في أمرها لذا استعملت (إن) .

---

١ . تفسير الوسيط : ٧/ ٣٥٥ .

وأتت بالفعل (يفعل) منفيا بـ(لم) ولم تأت بفعل يدل على الامتناع كـ(أبى)أو(امتنع)أو(رفض)؛ لحبها لأن يفعل ماتأمره به وكرهها استحضار الامتناع والإباء؛ لهذا استعملت (يفعل) لاستحضار الفعل وإن كان منفيا، ومن الملاحظ أنها قد ارتفع سقف طموحاتها فلم تعد إرادتها مقتصرة على ماكان، وإنما ولد كبرياؤها في نفسها أمورا أخرى، ويدل على ذلك قولها:﴿مَا آمُرُهُ﴾ فمن يتأمل كلمة ﴿آمُرُهُ﴾ يجد أنها قد اشتملت على ثلاث ضمات متوالية جعلت الصوت يخرج في دفقات مدوية متتالية، مجسدا تسلطها، عارضا قوتها، مصورا رغباتها في صورة بركان تتدافع حممه، مصحوبا بزفرات قلبها اللاهث وراء شهواتها بقصد تطويع يوسف عليه السلام لرغباتها .

وعبرت بـ(ما) الموصولة وهي لفظ عام مبهم، يتميز بأن آخره ألف مد يحتاج عند النطق به إلى اتساع في هواء الفم ليتناسب مع اتساع معناها، وهذا يدل على أن زليخا انتقلت من مرحلة التحديد إلى مرحلة أعم وأشمل؛ لهذا أحدث النظم حذفا في السياق ليناسب العموم فأصل الكلام(ما آمُره به)"[١] ،إلا أنه حذف الضمير العائد على يوسف . عليه السلام . ؛" للدلالة على لزوم امتثال ما أمرت به مطلقا"[٢]؛ وفيه نوع من التهديد، وكأنها تقول إن أمرها لابد أن يطاع من أي أحد يوسف وغيره ، فحذف الضمير دل على أنها تحاول تخليص غايتها إلى تنفيذ أمرها، وتجعل اهتمامها متوجها إلي المأمور به مباشرة، وكأنها تشي بأن يوسف إن امتنع عن تنفيذ ما طلبته فلن يجد حيلة من تنفيذ العقوبة ولن يتأخر غيره في تنفيذ ما ستطلبه من سجنه أو تعذيبه؛ لهذا عبرت عن مراودتها بالأمر "إظهاراً لجريان حكومتِها عليه واقتضاءً للامتثال بأمرها"[٣].

---

١ . الدر المصون : ٦ / ٤٩١.

٢ . إرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٧٣.

٣ . تفسير الوسيط : ٧/ ٣٥٥ .

كما أن السياق حذف حرف الجر من (ما آمُره به) فاتصل الضمير بالفعل، وهذا الحذف يحمل دلالة العموم أيضا؛ لأن (الباء) بما تدل عليه من معنى الإلصاق والمصاحبة، لو أتى بها في السياق لدلت على أن الكلام منصب على ما تريده امرأة العزيز في هذا الموقف فقط ، لكن حذف (الباء) جعل الاهتمام منصبا على تنفيذ كل الأوامر بكل أشكالها وصورها في كل وقت، وهذا كله يكشف عن سيطرتها ويتناسب مع لغتها المتسلطة التي استمدتها من مكانتها.

وأسند الفعل إلى (الأمر) من قبيل المجاز العقلي فالمراد "فعل موجبه ومقتضاه"[١]، إلا أن النظم آثر إسناد الفعل إلى الأمر لإظهار قوة سلطانها، فإذا كان الأمر ذاته يفعل متى أرادت فما بالك بموجبه ومقتضاه ؟ .

ويأتي جواب القسم دالا على جواب الشرط المحذوف ومبينا العقوبة التي تنتظره إذا لم ينصع لأمرها فقالت: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وقد اشتمل جواب القسم على عدد من المؤكدات التي تعكس لنا الحالة النفسية التي كانت تعاني منها تلك المرأة لحظة خروج هذا الكلام منها "فأتتْ بهذا الوعيدِ المنطوي على فنون التأكيدِ بمحضر منهن ليعلم يوسفُ . عليه السلام . أنها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيقَ عليه الحيلُ وتعيا به العللُ"[٢] ومن الملاحظ أن توعدها له اشتمل على أمرين: أولهما:(لَيُسْجَنَنَّ) ثانيهما: (لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) وقد اختلفت طريقة صياغتها لكلا الأمرين بما يكشف للمتلقي عن أمور نفسية وراء صياغة كل أمر منهما، حيث أتى التوعد بالسجن بصيغة المضارع دون الاسم؛ ليدل على التجدد والاستمرار، وهذا يكشف عما في خبيئة نفس امرأة العزيز فهي لا تريد ليوسف ـ عليه السلام . أن يخلد في السجن؛ لتعلق قلبها به، لذلك لم يعبر النظم الحكيم بالاسم الدال

---

١ . روح المعاني : ٦ / ٤٢٤.

٢ . إرشاد العقل السليم : ٤ / ٢٧٣.

على الثبوت، بل تريد أن تنزل به عقوبة متقطعة لمدة غيرِ معلومة من الزمان على أن تكون هذه المدة قابلة للاستمرار والتجدد شيئا فشيئا، حتى يتأكد لديها تحقق نتيجة سجنها له، وتلك النتيجة أو الغاية للمرأة هي أن يرضخ يوسف ـ عليه السلام ـ لأمرها، وينفذ رغبتها فيوافقها على مرادها بعدما أيست من طاعته لها وطمعت فى أن يذله السجنُ ويسخرَه لها، كما أن استعمال الفعل المضارع مكن النظمَ من أن يكشف عن مقدار سيطرة تلك المرأة على زوجها، ووثوقها من نفسها على قدرتها من سجنه كلما أرادت، عن طريق ما لحق الفعل من مؤكدات منها: لام القسم ونون التوكيد الثقيلة، وهذا لايكون إلا إذا كانت مالكة لزمام قيادة زوجها توجهه حيث تريد، فأتت بالفعل مؤكدا بحشد كبير من المؤكدات التي يفهم منها أن قرارها لن يقف أحد مهما كان في تنفيذه"وماكان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها،... فكان مطواعا لها وجميلاً ذلولا زمامه في يدها "[1] فلم تُلق له بالا .

وأتي الفعل (يسجن) مبنيا للمجهول؛ لتوجيه الذهن إلى العناية بالفعل وأثره على النفس بغض النظر عمن سيفعل فهي بدورها ستأمر وسيتم الفعل من أي أحد، كما أن إيثارها "بناءَ الفعل للمفعول جريًا على رسم الملوكِ أو إيهامًا لسرعة ترتبِ ذلك على عدم امتثالِه لأمرها كأنه لا يدخُل بينهما فعل فاعل"[2]، وعلى كل فإن مجيء الفعل مبنيا للمجهول يتفق مع طبيعة الموقف، وسياق الكلام، فالمرأة في هذا الموقف ترتكز على طبيعة الطبقة التي تنتمي إليها وهي الطبقة الحاكمة، ومعلوم أن لغة الملوك تميل إلى حذف الفاعل تفخيما لشأنهم وإشعارا بأن الفعل لا ينصرف إلا إليهم، وأن أفعالهم تقع بشكل سريع وهذه الأمور تحققت ببناء الفعل للمجهول.

---

(١) الكشاف : ٢/ ٤٦٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٤/ ٢٧٣ .

ولما كانت امرأة العزيز عالمة بطبع سيدنا يوسف . عليه السلام . متأكدة بأن إلحاق الصغار والذل به من الأمور الصعبة لأنها جربت طباعه وعلمت ما يمتلكه من عزة نفس فلم تقدم على إلحاق نون التوكيد الثقيلة في الشق الثاني من وعيدها إياه في قولها: ﴿لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، فهي لا تستطيع أن تؤكد ما لا قدرة لها عليه، ولا بيدها حدوثه، بخلاف السجن فهي واثقة في قدرتها على فعله فاستخدمت نون التوكيد الثقيلة، يقول الإمام الألوسي:" أكدت السجن بالنون الثقيلة لتحققه، وما بعده بالنون الخفيفة؛ لأنه غير متحقق "(١)، والواقع يؤيد ذلك حيث نفذت تهديدها الأول فأدخلت يوسف السجن، إلا أنها لم تستطع أن تنزل به الذل فعاش عزيز النفس هادئ البال حتى ظهرت براءته للجميع، وبهذا فقد فشلت في تحقيق وعيدها الثاني، وقد يكون وجه المغايرة راجعًا لعامل نفسي لدى المرأة وهو شدة حبها ليوسف فهي تميل أكثر إلى سجنه لفترة من الزمن تجعله يرضخ لطلبها، إلا أنها لا تحب أن تنزل به الذل أو الإهانة فالحبيب لا يرضى لحبيبه أن يكون مهانا، فخرج الكلام منها مطابقا لشعورها، يقول الإمام البقاعي:" ولما كان عزمها على السجن أقوى من العزم على إيقاع الصغار به، أكدته بالنون الثقيلة ... أو أن الزيادة في تأكيد السجن لأنه يلزم منه إبعاده، وإبعاد الحبيب أولى بالإنكار من إهانته" (٢).

ومن الملاحظ أن خطاب المرأة يتغير حسب موقفها فامرأة العزيز هددت يوسف ـ عليه السلام ـ بالسجن مرتين في موقفين : الأول: في خطابها مع زوجها حينما فوجئت به وهي تطارد يوسف . عليه السلام . والثاني بعد اعترافها بمراودة يوسف أمام النسوة، ومعلوم أن الموقفين بينهما اختلاف فهي في الموقف الأول هدفها الخروج من محنتها فهي في موقف ضعف موقف لا يتعدى الاقتراح؛ لذا جاء كلامها خاليا من التأكيد، أما في موقف النسوة

(١) روح المعاني : ٦/ ٤٢٤.
(٢) نظم الدرر : ١٠ / ٧٤ .

فظهرت لهجة التوكيد عالية قوية؛ لأن كلامها خرج من موقف القوة، وهي قد جربت زوجها وعلمت أنه مطيعها فيما تريد، كما أن الحياء قد ذهب والأمر قد انكشف وصرحت بالأمر دون خجل مما جعلها تقوي من تهديدها، وهذا الأمر يصور المرأة إذا خرجت عن فطرتها التي فطرها الله عليها فاستغنت عن حيائها فلاترى بأسا من الجهر بنزواتها وفجورها، بل إنها لا ترى حرجا من أن تفخر بذلك أمام جنسها، وهذا الأمر يكثر غالبا بين النساء المترفات اللاتي لايجدن ما يشغلهن فيملأن فراغهن بالجري وراء نزواتهن وشهواتهن.

المطلب الخامس

رد النسوة وامرأة العزيز على سؤال الملك

يقول تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ يوسف (٥١ ، ٥٢).

المعنى والسياق:

هاتان الآيتان تقصان ما جرى من حديث بين ملك مصر من جانب والنسوة وامرأة العزيز من جانب آخر، وقد جاء هذا اللقاء نزولا على رغبة يوسف . عليه السلام ـ حين طلب إعادة النظر في قضيته، عندما قال لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ واستجاب الملك لذلك الطلب وأحضر هؤلاء النسوة وجرى بينهم هذا الخطاب.

من بلاغة كلام النسوة وامرأة العزيز في ردهن على سؤال الملك:

أولا : جواب النسوة :

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾

ومن الواضح أن الملك استعمل القوة والدهاء في سؤاله لهؤلاء النسوة، أما القوة فقد ظهرت في لفظة (خطبكن) فـ"الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب"(١)، كما أنه وجه سؤاله بصيغة الخطاب الجماعي والخطاب هنا أشد من غيره، كما أنه صرح بفعلتهن في قوله: ﴿ راودتن ﴾ ، وهذا أشد وقعا

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ): ٢٨٦، تحقيق: صفوان عدنان الداودي : دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ

على نفوسهن، أما الدهاء فقد ظهر في سؤال الملك، لأن المتوقع أن الملك سيسأل النسوة: ممن كانت المراودة أمن يوسف أم منكن؟ إذ المقام مقام تحقيق واستقصاء،إلا أنه استعمل ما يضمن تنزيه يوسف . عليه السلام .؛ ليوهم النسوة بأنه عالم بالحقيقة وبهذا لم يترك لإنكارهن مجالا، ولم يدع لهن فرصة للكذب، وبهذا لا يجدن أمامهن إلا الاعتراف.

ويأتي الجواب حاملا دهاء ومكرا يقابل دهاء الملك ومكره، حيث أتت إجابتهن على غير المتوقع، إذ إن المتوقع أن يأتي الجواب عن موقفهن وموقف يوسف من المراودة إلا أنهن قلن :﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ فجاء الجواب حاملا منهن مكرا ودهاء، "إذ سألهن عما عملن من السوء معه فأعرضن عنه وأجبن بنفي السوء عنه "[1]، وبهذا تكون هذه الإجابة من باب الأسلوب الحكيم وقصدن النسوة ذلك كي يسترن أمر المراودة ولا يشرن إليها ألبتة، وبهذا فقد نجحن في تحويل أذهان السائل إلى ما يحقق لهن البراءة الكاملة ويمنح يوسف بعض براءة .

ويرى البعض أن الإجابة جاءت وفق ما يقتضيه سؤال الملك وأن مفهوم السؤال هو: ما خطبكن إذ راودتن يوسف وخادعتنه عن نفسه ورغبتنه في طاعة مولاته، هل وجدتن فيه ميلا ؟ فجاءت الإجابة (قلن حاش لله) مطابقة لسؤال الملك ودالة على تنزيه يوسف عليه السلام. [2]

وعلى كل فإجابة النسوة جاءت مطابقة لكلام الملك إلا أنها اشتملت على شيء من مكرهن الذي هو من طبائعهن؛ لأنه من المعلوم أن الملك ما سأل سؤاله إلا من أجل التأكد من براءة يوسف عليه السلام، فالنسوة قد أجبن عليه بما يثبت براءته، ويحفظ جانبهن، وجانب امرأة العزيز، ولو قلن: ما وجدنا منه ميلا، لأثبتن البراءة ليوسف وأثبتن التهمة لأنفسهن، وقولهن: (حاشا لله) تحمل

(١) نظم الدرر :١٠ / ١٢٦ .
(٢) روح المعاني ٦ / ٤٤٨ بتصرف .

تعجبا من نزاهة يوسف وعفته، وتعجبا من قدرة الله على خلق عفيف مثله، وهذا يحمل مبالغة في نفي التهمة عن يوسف وتنزيهه عما نسب إليه [١]، وجاء قولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ "لإجمال النفي الذي في (حاش لله)، وهي جامعة لنفي مراودتهن إياه ومراودته إياهن؛ لأن الحالتين من أحوال السوء، ونفي علمهن ذلك كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء ونفي دعوته إياهن إليه لأن ذلك لو وقع لكان معلوما عندهن"[٢]، كما أن نفي العلم فيه دليل كامل على براءة يوسف عليه السلام، فمعلوم أن النسوة قد سمعن خبر المرأة مع يوسف، ثم رأين حال يوسف . عليه السلام . حينما دعتهن امرأة العزيز إلى القصر، ثم تأكدن من حقيقة الأمر باعتراف المرأة نفسها، ونفي العلم يشمل براءته من كل ما سبق، فلو قلن: ما سمعنا عليه لظن أنهن قد رأين، ولو قلن: ما رأين لظن أنهن سمعن.

وعدى الفعل بـ(عليه) دون (من) للمبالغة في إثبات براءته، لأنه لوقلن: (ما علمنا منه) لكان النفي مقصورا على ما صدر منه أمامهن لكنهن حينما عدين الفعل بـ(على) جعلن نفي السوء يشمل كل ما علمنه عنه سواء أكان منه أم من غيره .

وقولهن :(من سوء) دليل على إغراقهن في النفي ، وتحقق هذا الإغراق عن طريق وقوع النكرة (سوء) في سياق النفي للدلالة على العموم، كما أن دخول (من) عليها دل على نفي جنس السوء كله، ومعلوم أن نفي الجزء أبلغ من نفي الكل، وكأنهن قلن: إنه ما علمنا عليه أدنى شيء يسوءه لا كبير ولا صغير، لا كثير ولا قليل.

ومن الواضح أن النسوة عمدن إلى تأكيد نفي السوء عن يوسف . عليه السلام .؛ لأنهن علمن أنهن إن ألحقن به أي سوء انسحب عليهن فَحَرصن

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٨٤ . ، التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٩٠ .
(٢) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٩٠ .

على تبرئته، بدافع تبرئة أنفسهن.

ثانيا: جواب امرأة العزيز:

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

ويأتي دور امرأة العزيز صاحبة الشأن وذات الدور الأهم لتصرح بالحقيقة كاملة، وتكشف عن الغطاء، وتميط عن الحق اللثام، فبدأت كلامها بقولها: (الآن) وهو ظرف زمان يوحي بدوافع نفسية عند تلك المرأة، فهي تعيش مضطربة النفس لما فعلته بيوسف . عليه السلام .، إذ زجت به في السجن دون ذنب، ومن الواضح أنها كانت تبحث عن فرصة تعلن فيها براءته، وإلا ما الذي دفعها إلى إعلان براءته بعدما أمنت جانب النساء وعلمت أنهن لن يكشفن أمرها أمام الملك ؟

ولعل من الأمور التي قوت رغبتها على إظهار براءة يوسف . عليه السلام . ما وجدته منه من كرم زائد جعله يراعى جانبها حيث قال:" ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن"، فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة، فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها"[1]، ولعل هذا دفعها في هذا الوقت خصوصا إلى إعلان الحقيقة كاملة دون تردد، فقدمت اسم الزمان(الآن)؛" للدلالة على الاختصاص، أي الآن لا قبله؛ للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان كان زمنا باطلا وهو زمن تهمة يوسف- عليه السلام- بالمراودة، فالقصر قصر تعيين إذ كان الملك لا يدري أيُّ الوقتين وقت الصدق؟ أهو وقت اعتراف النسوة بنزاهة يوسف- عليه السلام- أم هو وقت رمي امرأة العزيز إياه بالمراودة ؟"[2].

وقولها: ﴿حَصْحَصَ﴾ فهي كلمة جامعة مانعة في موضعها من جهة

(١) روح المعاني : ١٨ / ٤٦٧ ، ٤٦٨

(٢) التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٩١

المعنى والمبنى والصياغة، أما من جهة معناها فقد اجتمع لها من المعاني العديد، وكل معنى له وجه في الآية فمن معانيها: الظهور والوضوح والانكشاف [١]، ويكون المعنى هنا أن براءة يوسف قد ظهرت وانكشفت على أكمل وجه لجميع الأطراف المتعلقة بالقصة، حيث النسوة وامرأة العزيز والملك، وقيل من معانيها: القطع والإزالة [٢]، وقد جمع الإمام الطبري للكلمة هذين المعنيين فقال: "﴿ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ذهب الباطل والكذب فانقطع، وتبين الحق فظهر"[٣]، وقيل من معانيها الثبوت والتمكن والاستقرار[٤]، وذكر هذا المعنى الزمخشري فقال:"﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾أى ثبت واستقرّ"[٥]، ومن معانيها المبالغة، يقال: حَصْحصَ الرجلُ إذا بالَغ في أَمره[٦]، وعلى هذا فقد صورت هذه اللفظة بمعانيها المتعددة انكشاف الحق ووضوحه، وضوحا يقطعه عن كل باطل ويزيل عنه أي شك، ويثبت البراءة ويجعلها مستقرة في أذهان الجميع متمكنة في قلوب الحاضرين تمكنا قويا تاما بلا نقص أو شبهة .

أما من جهة مبناها فأصلها حصص، وزيد في مبناها حرف الحاء فأصبحت (حصحص) ومعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ليكون المراد المبالغة في ظهور الحق وانقطاع الباطل يقول الإمام البقاعي:" أي حصل على أمكن وجوهه،... فهذه زيادة تضعيف، دل عليه الاشتقاق" [٧]، وبهذا يتحقق لتلك اللفظة المبالغة من جهة المعنى و المبنى .

---

(١) لسان العرب مادة (حصص) .
(٢) لسان العرب مادة (حصص) .
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن : ١٦ / ١٣٩ .
(٤) لسان العرب مادة (حصص).
(٥) الكشاف : ٢ / ٤٧٨.
(٦) لسان العرب مادة (حصص) .
(٧) نظم الدرر : ١٠ / ١٢٧ .

أما من جهة صياغتها فقد أتت على زمن الماضي على الرغم من وجود الظرف الدال على الحاضر (الآن) كما أن البراءة لم تثبت إلا بإقرارها، ولعل السبب في التعبير بالماضي هو أنه قد تحقق لدى امرأة العزيز أن براءة يوسف . عليه السلام . قد ثبتت دون الحاجة إلى إقرارها خصوصا بعدما سمعت كلام النسوة وما أقررن به من أن يوسف . عليه السلام ـ برئ مما اتهم به، "وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال "[1]؛ لذا أتى (حصحص) بلفظ الماضي؛ لأنها أيقنت أن براءته قد ظهرت قبل كلامها، وبهذا تكون هذه اللفظة قد صورت كيف أن الحق تجمع من متفرقات ثم ظهر في صورة متكاملة، واضحة متآزرة.

وقد حاولت زليخا تقصي الحقيقة بكل أبعادها فقالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾ فقدمت ضمير المتكلم (أنا) المسند إليه على المسند الفعلي (راودته) لإفادة القصر؛ ليكون ذلك اعترافا منها بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف . عليه السلام . كان مبرأ من الكل وكذا النسوة، ومع ما أفاده من قصر فقد حقق التقديم أيضا توكيدا نتج عن تكرار الإسناد، ليؤكد أن هذا الفعل كان منها لا من غيرها.

وعند إقرارها هنا بذنبها في قولها:(أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) جاءت الجملة خالية من التوكيد؛ بخلاف إقرارها بفعلتها أمام النسوة (وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) حيث أتى هناك مؤكدا، ولعل السبب في ذلك هو أن المرأة إذا تحدثت من قبيل سلطانها مرتكزة على مكانتها تعرت من حيائها، وجاء كلامها فيه حدة وتعال يصل بها إلى هتك سترها، أما إذا تحدثت تحت تأثير عاطفتها وضعفها اكتست بحيائها، فانطبع على لسانها وظهر في سمت كلامها،وأتى قولها في لين ورقة معبرا عن انكسارها مشخصا ضعفها، والاعتراف هنا أمام الملك بذنب يدعو للخجل ، فجاء اعترافها مبطناً بالحياء، خاليا من التوكيد .

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤٧٨.

وأكدت امرأة العزيز ما أفصحت عنه من مدح ليوسف . عليه السلام . ونفي للسوء عنه بقولها: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وأتى كلامها مؤكدا بالجملة الاسمية و(إنّ) في (وإنه) وبـ(اللام) في (لَمن). ومعلوم أن الجملة الاسمية الدالة على الثبوت؛ تشير إلى أن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ "مشهود له بالثبات على صفة الصدق، كما أن الاسمية أفادت عدم تقييد صدقه بزمان أو واقعة؛ بل جعلت صدقه شيئا متأصلا فيه؛ لهذا أتت بواو العطف بين جملة ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وما قبلها؛ للإشعار بأن الصدق صفة عريقة مستقلة بذاتها في يوسف وهي عادة من عاداته.

واختارت امرأة العزيز صفة الصدق دون غيرها، لأنها تتناسب مع أحداث القضية ومواقفها المتتالية، حيث حاولت امرأة العزيز أن تلصق بيوسف . عليه السلام ـ تهمة الكذب في مواضع مختلفة لتستر فعلتها، فلما عادت لرشدها وجدت أنه من الواجب عليها أن تخلع عنه ما حاولت إلصاقه به، وهذا يظهر حرصها على تأكيد كلامها؛ لأن وصفها ليوسف بالصدق يتنافي مع ما ادعته من قبل أليست هي من قالت :﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ...﴾ ؟ فهي الآن بصدد هدم ادعاءات قديمة، وبناء حقائق جديدة وهذا يحتاج إلى نوع من التأكيد .

وتعلل امرأة العزيز لقولها السابق واعترافها على نفسها بقولها:﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ ، واسم الإشارة هنا عائد على الاعتراف والإقرار، والغرض منه هو استحضار ما اعترفت به، ولعلها عبرت بالبعيد؛ للدلالة على أن هذا الاعتراف يدور بذهنها منذ زمن، وكانت تترصد الفرصة المناسبة؛ لتفصح عما استقر في نفسها ودار بخلدها .

وقولها ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يدل على أنها فعلت ما فعلت من أجل إعلام يوسف . عليه السلام . بتحولها عن فعلها الأول والدليل أنها حرصت على إقرارها بالخطأ والشهادة له بالنزاهة على الرغم من غيابه عن مجلس الملك.

وجاء قولها: (أني) ليؤكد خروج هذا الإقرار من صميم نفسها دون إلحاح من أحد، وما قالته إلا نزولا على رغباتها واقتناعا برأيها، فأتى كلامها معبرا عن ذلك، كما أن امرأة العزيز تعلم أنها قد اتهمت يوسف بالباطل في وجوده، فنفي اتهامه بالكذب في غيابه منها أصبح أمرا مشكوكا فيه، فأتى كلامها مؤكدا لتزيل هذه الشكوك، وناسب ذلك قولها: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فنفت الخيانة عن نفسها بـ(لم) وهي حرف نفي وجزم وقلب، لتدل على أن الخيانة لم تقع منها خلال المدة التي غاب عنها، وعبرت بلفظ الخيانة؛ لأن الفعل المتوقع من مثلها في هذا الموقف هو الخيانة وعدم الوفاء له؛ لأنها كذبت في حضوره دون أن تراعي له جانبا، فالكذب عليه في غيابه أولى لتخلص نفسها مما وقعت فيه؛ لذا نفت هذا الأمر عن نفسها .

وأتت بالجار والمجرور ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ لتأكيد حسن نيتها، ورجوعها عن فعلتها، وتصوير نزاهتِها عن الخيانة وإصرارها على قول الحق عن طريق نفيها الخيانة في المغيب على الرغم من أن المغيب يوفر لها دواعي تجعلها ترميه بالكذب في غيبته، ويعضد لها الأسباب اللازمة لذلك، إلا أنها لم تفعل، كما أن المغيب" لا يعطي الفرصة ليوسف . عليه السلام ـ للدفاع عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمريد الخيانة أن يخون فيها من حالة الحضرة؛ لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجة"[1]، وقولها:﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ "علة ثانية لصدعها بالحق، وبهذا يكون الخبر مستعملا في لازم الفائدة وهو كون المتكلم عالما بمضمون الكلام؛ لأن علة إقرارها هو علمها بأن الله لا يهدي كيد الخائنين"[2]، وعطفت بالواو على جملة (ليعلم ...) على الرغم من أن الجملة الثانية مكملة للأولى وتأكيد لمعناها إذ إنها مع ما قبلها من باب واحد إلا أن الواو أضافت معنى آخر؛ حيث إنها تؤذن بمعنى المغايرة

(١) يراجع : التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٩٣ .
(٢) السابق : ١٢ / ٢٩٣ بتصرف

وكأنها توهم أن ما بعدها:﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ خبر جديد مغاير لما قبله ومستقل بنفسه، وهذا الأمر يوحي بأن تلك المرأة وقعت تحت تأثير دوافع مختلفة جعلتها تعلن حقيقة أمرها، وهذا يكشف للمتلقي مقدار الصراع النفسي التي عاشته تلك المرأة خلال هذه الفترة .

ومن الواضح أن امرأة العزيز عاشت تجربة جعلتها تؤمن بأنَّ كلَّ خائن مهما حاول تنفيذ خيانته، ومهما حشد لها من كيد سياسي وإعلامي، وضخّ بالقوّة والتخويف، فلن يفلح و لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبيَّن أمره ويفتضح إن عاجلاً أو آجلاً؛ لهذا جاء كلامها معبرا عن مدى إيمانها بتلك السنة الكونية والقضاء الإلهي، خارجة به من حدود التجربة الشخصية إلى تجربة عامة، فأتت بالواو لتشعر أن ما بعدها فيه مغايرة لما قبلها، ثم عبرت بالجملة الاسمية المؤكدة بـ(إنّ)، وأدخلت النهي على الفعل المضارع(يهدي) الدال على التجدد والاستمرار دون الاسم (هاد) الدال على الثبوت والدوام؛ إشارة منها أن صاحب الكيد قد يخيل له في فترة من الزمن أن كيده قد بلغ به إلى غايته ومراده، خصوصا إذا امتلك صاحبه من المقومات ما يعزز كيده كالمال والسلطة، ولكن سرعان ما يصبح هذا الخيال سرابا لا وجود له وتدور الدائرة على صاحبها ويجد نفسه يحصد نتاج كيده شرا وخيبة أمل .

و نفى الهداية عن الكيد في قوله :﴿ لَا يَهْدِي كَيْدَ ﴾ من قبيل المجاز العقلي من باب المبالغة في النفي، والمراد " لا ينفذه ولا يسدده. فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي إن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع" [1]، ويجوز أن يكون المراد "لا يهدي الخائنين بسبب كيدهم فأوقع الهداية المنفية على الكيد وهي واقعة

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٩٣

عليهم تجوزا للمبالغة لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى"[١].

وعبرت بلفظ الجمع في قولها:﴿ الْخَائِنِينَ ﴾؛ للدلالة على أن هذا الأمر قانون عام يطرد على كل خائن، وليس الأمر خاصا بها، كما أن الجمع يدل على أن الخيانة مهما اجتمع لها من أسباب وقوة فمصيرها إلى الفشل وإن اجتمع لها جمع غفير فلن يفلح جمعهم؛ لأن الله لايسدد كيدهم بل يرده في نحورهم و"يقيم سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهدوا في التعمية"[٢].

وتمضي المرأة في إقرارها بذنبها فتقول:﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ وذهب العلماء إلى أن هذا القول يحتمل أن يكون احتراسا وأن يكون اعتذارا، أما عن كونه احتراسا فيقول ابن عاشور: "﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ احتراس مما يقتضيه قولها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾، من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت: ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم؛ لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع"[٣]، إلا أن هذا القول يرده أن المرأة قد اعترفت بالمراودة فكيف يفهم من قولها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، كما أنها عندما نفت وقوع الخيانة من جانبها قيدتها بالغيب، لأنها مقرة بما ادعته على يوسف في حضوره ونفت أن يكون قد وقع منها شيء في غيابه .

أما عن الاعتذار فهي حينما أقرت بكل ما كان منها وجدت في نفسها رغبة أن تخفف وطأة القضية عن كاهلها بعدما أَخْلَتْ جانب يوسف عليه السلام، فقدمت اعتذارا وتبريرا لفعل شائن صدر عنها، وبينت أن الأمر خارج عن إرادتها، فقالت: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ لبيان أن ما وقعت فيه من الأمور قد

(١) روح المعاني : ٦/ ٤٥٠
(٢) نظم الدرر : ١٠ / ١٢٨.
(٣) التحرير والتنوير:١٣/٥.

تعتري كل بني جنسها، وكأنها تقول : وما فعلته ليس بدعا ولا نكيرا على البشر فأبرئ منه نفسي، فالنفس البشرية جموحة للهوى نزاعة للشهوة أمارة بالسوء مائلة إليه بطبعها، وبهذا تفتح لنفسها باب التوبة والرجاء، وكلها ثقة بربها لعلها تجد لنفسها مخرجا ولذنبها توبة، وهذا ما صرحت به في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ومن الملاحظ أنها أسندت نفي البراءة إلى نفسها خاصة ولم تسندها إلى ضمير يعود عليها بالكلية كأن تقول: وما أنا بريئة أو لست ببريئة، لتظهر النفس في الحديث فينتقل الذهن إلى ما اشتهر عن النفس البشرية من ميلها للسوء فتكون حجتها أقوى .

ولم تقيد امرأة العزيز براءة نفسها من شيء معين، ليتسع المعنى لأشياء كثيرة تدل على أن النفس البشرية من طبعها أن تأخذ بصاحبها لطرق الغواية المختلفة وإن تعددت مسالكها، وهذا الأمر من شأنه أن يخفف عنها حدة النقد ولذعة الشماتة.

ويأتي قولها: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ ﴾؛ تعليلا لما قبله، وتأكيدا لاعتذارها ، وجاء قولها ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ ﴾ مفصولا عما قبله لما بينهما من شبه كمال اتصال؛ إذ إنه عند سماع قولها : ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ يتبارد إلي الذهن سؤال عن سبب خاص "كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل: إن النفس لأمارة بالسوء "[1] .

وجاء كلام امرأة العزيز محشودا بأنواع مختلفة من التوكيدات وإخراج الكلام على هذه الصورة يعد خروجا على مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسوء﴾ غير أن هذا الحكم لما كان مسبوقاً بجملة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَما أُبَرِّئُ

(١) يراجع الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ): ١٣٥، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي ، دار إحياء العلوم، بيروت ١٤١٩هـ = ١٩٩٨ م .

نَفْسِي﴾ وهي تشير إلى أنَّ النفس محكوم عليها بشئ غير محبوب أصبح المخاطب مستشرفا متطلعاً إلى نوع هذا الحكم، فنزل من أجل ذلك خالي الذهنِ منزلةَ السائلِ المترددِ، و ألقي إليه الخبر مؤكدًا. (١)

ومن الواضح أن امرأة العزيز قد أرادت أن تنهي كلامها بما يضمن لها تحقق مرادها وهو أن ما وقعت فيه قد يقع فيه أي إنسان بسبب ماركب في النفس من طباع وغرائز، لذا حشدت لذلك الغرض كمًّا هائلا من المؤكدات منها ما حققه شبه كمال الاتصال من تأكيد؛ إذ إن هذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم لما يشتمل عليه من تكرار الإسناد في السؤال المقدر مرة وفي الجواب المذكور مرة أخرى، كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ اشتمل على معنى الجملة السابقة: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ وقد عقب بها عليها توكيدا لمعناها، بالإضافة إلى أنها مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها. وعلى هذا فإن ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ إطناب بالتذييل الجاري مجرى المثل، كما أنها عبرت بالجملة الاسمية المؤكدة بإن، والتأكيد بـ(إن) هنا حقق ميزة كبيرة أشار إليها الإمام عبد القاهر في قوله:" ترى الجملةَ إذا هيَ دخلَتْ . يعنى (إن) . تَرتبِطُ بما قبْلَها وتأتلفُ معه وتَتَّحدُ به، حتى كأنَّ الكلامَيْنِ قد أُفرِغا إفراغاً واحداً، وكأَن أحدَهُما قد سُبِكَ في الآخَرِ ...حتى إذا جئتَ إلى "إنَّ" فأسقطتَها، رأيتَ الثاني منهما قد نَبَا عن الأولِ، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ، حتى تجيءَ "بالفاءِ" ...ثم لا ترَى "الفاء" تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه مِنَ الألفة، ولا تردُّ عليك الذي كنت تجد بـ "إن" من المعنى"(٢).

كما أنها عمدت إلى ذكر النفس مرة ثانية في قولها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بدلا من أن تقول:(إنها لأمارة بالسوء) وهذا الأمر من شأنه أن يزيد"

---

(١) يراجع الإيضاح في علوم البلاغة : ٣/ ١٢، ١٢١

(٢) دلائل الإعجاز : ٣١٧ .

أمر الاستئناف تأكيدا بأن وضع الظاهر موضع المضمر من حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام "[1]، وهذا العدول عن ذكر المضمر إلى ذكر الاسم الظاهر يحمل دلالة وإشارة من تلك المرأة إلى أن ميل النفس إلى القبائح وتوقها إلى المعصية أمر عام يشمل كل النفوس، أي أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء، ولو ذكرت الضمير لدل على التخصيص، وهذا مخالف لمراده، كما أن مجيء لفظة النفس مقترنة بـ(أل) الجنسية دل على أن هذا الحكم متعلق بجنس النفس، شامل لكل أفراده، وهذا يكشف عن سر المغايرة في تعريف النفس في الآية حيث أتت تارة معرفة بالإضافة (نفسي) وتارة بـ(أل) (النفس)، وتعريفها للنفس في المرة الأولى بإضافتها لضمير المتكلم لأنها قصدت الحديث عن نفسها؛ لأنها في مقام اعتراف بالذنب وهذا المقام يناسبه ضمير التكلم لأنه يعين صاحبه، أما في الجملة الثانية فقصدت تقليل اللوم عن نفسها وتحويل القضية من خطأ شخصي لطباع نفسية عامة، وهذا يناسبه التعريف بـ(أل) الجنسية ليشمل كلامها كل نفس .

وزادت امرأة العزيز من تأكيد كلامها بقولها: (لأمارة) حيث أكدت الكلام بـ (اللام) واستعملت صيغة (أمارة) وهي من صيغ المبالغة على وزن فعَّال؛ للمبالغة في شدة ما توجهه النفس لصاحبها من أوامر وهذا يكشف عن مدي تكالب النفس على الشهوات والمعاصي، والمرأة بذلك تؤصل لفكرة أن ما وقعت فيه ليس بالأمر العجيب وإنما هو طباع النفس البشرية .

ولما كان الأمر يحتمل أن يكون بالخير وبالشر فقد خصصت أوامر النفس بـ(السوء) فقالت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي تأمر بكل قبيح لأن السوء هو "الخَلّةُ القَبِيحةُ ويطلق على كلمة قبيحة أَو فَعْلة قبيحةٍ"[2]، بخلاف حذفها

(١) الإيضاح : ٢٥ .
(٢) لسان العرب: مادة: سوأ .

في قولها: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فنفي البراءة كان دليلا على أن المحذوف من الأمور التي يتبرأ منها الإنسان، فلو ذكر السوء هنا لكان حشوا من شأنه أن يضيق المعنى.

و(الباء) في قوله: ﴿بِالسُّوءِ ﴾ للإلصاق وهي بهذه الدلالة تتناغم مع المبالغة المفهومة من صيغة (أمارة) وما صاحبها من تأكيد، وكأن النفس تُلح على صاحبها حتى تلصقه بالسوء وتلصق السوء به .

وقولها: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ استثناء جعل من الوصف السابق للنفس (أمارة بالسوء) أصلا ثابتا معلوما، يشيع وجوده، حيث جعله مستثنى منه، وجعل (ما رحم ربي) أمرا طارئا قليل الوجود إذ جعله مستثنى .

والاستثناء هنا يحتمل أن يكون متصلا وأن يكون منقطعا، فعلى كونه متصلا تكون (ما) موصولة بمعنى«من» والتقدير: إلا من رحم ربي، أو تكون ما ظرفية، والمعنى: إن النفس لأمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة الله العبد وذهابه عن اشتهاء المعاصي، وعلى كونه منقطعا تكون (ما) مصدرية أي : لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة.

ومن عجيب النظم وألفاظه أنه دل على كل هذه المعاني وتحملها في آن واحد وهذا الأمر من قبيل التوسع فى المعنى، وهذا باب من أبواب إعجاز القرآن .

واستعملت امرأة العزيز لفظة (الرحمة) في قولها: (إلا ما رحم ربي) لتدلل على أنه لا ينجو أحد من نفسه إلا إذا شملته رحمة ربه ، وكأنها تقول من اتكل على نفسه في طلب النجاة هلك، لأن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته، كما أن هذه اللفظة تشعر بأن هذه المرأة تحاول أن تخرج من ربقة نفسها للتحصن برحمة ربها، وهذا استدعاها إلى أن تستعمل لفظ (ربي)، فالربوبية تتناسب مع مقام التوبة والرجوع إلى الله .

وتختم امرأة العزيز اعتذارها بقولها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لتجمع كل خيوط الحديث وتظهر مدى رغبتها في طلب العفو، فأخرجت كلامها في صورة مؤكدة لتكشف عن مقدار تلك الرغبة في نفسها ومدى انفعالها بها.

وأتى هذا التأكيد متمثلا في التعبير بالجملة الاسمية المؤكدة بـ(إن)، والإظهار في مقام الإضمار الذي مكنها من إعادة لفظ (ربي) بما يدل عليه من ربوبية تتناسب مع مقام الرجاء والرحمة، كما أنها عبرت بصيغتي المبالغة (غفور، ورحيم)؛ للدلالة على أنها تطمع في هذا القدر الزائد من الغفران والرحمة، وقدمت المغفرة على الرحمة؛ "لأن التخلية مقدمة على التحلية"، ولأن الآية بدأت باعترافها بذنبها (وما أبرئ نفسي) فناسبها في الفاصلة أن تأتي بـ(غفور)، ثم أعلنت أن مناط السلامة من وسوسة النفس يتمثل في أن تتغمدها رحمة الله فقالت: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ وهذا ناسب أن تأتي بـ(رحيم).

المبحث الخامس

كلام بلْقِيس

ورد حديث بلقيس في سورة النمل في الآيات (٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢،٣٤ ، ٣٥، ٤٢، ٤٤) وخطاب بلقيس ملكة سبأ يعد نموذجا يكشف لنا بعض سمات الشخصية النسائية التي تمارس العمل السياسي، والواضح أن بلقيس لم تكن امرأة عادية، أو ملكة حكمت في زمن من الأزمان ومر ذكرها مرور الكرام شأن كثير من الملوك والأمراء، وإنما كان لها شأن عظيم، وإلا لما خلد القرآن ذكرها!

ومن الواضح أن القرآن الكريم جعل من تلك المرأة الملكة «أنموذجاً» فاعلاً من شأنه أن ينقُض غزل الأوهام التي استقرّت بباطن عقول الكثير، فأراد القرآن أن يصنع من المرأة حكاية أخرى غير التي ألفت عن النساء، فأجرى على لسانها سياقاتٍ دَلاليّة حواريّة تَشي بأننا أمام امرأةٍ من نوع يخالف ما رسخ في مخيلة ذاكرتنا، فسجل للمرأة أعظم الأمثلة في الحكمة والتعقل من خلال عرضه لقصة بلقيس التي شغلت أعلى المناصب في مملكةٍ امتازتَ بحضارةٍ لافتةٍ.

وقد ورد كلامها في مشهدين مختلفين: المشهد الأول: حينما ألقى إليها الهدهد رسالة نبى الله سليمان . عليه السلام ـ وجاء خطابها هنا مع أهل مشورتها، والمشهد الثاني: حينما تقابلت مع سليمان . عليه السلام . وكان حوارها معه.

المطلب الأول

حديثها مع أهل مشورتها

يقول تعالى: ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ* قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ* قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ سورة النمل من الآية (٢٩ : ٣٥)

عرض السياق والمعنى :

يأتي هذا الكلام على لسان بلقيس عندما وصلتها رسالة سليمان . عليه السلام، فجمعت أشراف قومها؛ لتخبرهم بما وصل إليها وتستشيرهم فيما ستفعل .

وقد أتت قصة بلقيس في سياق الحديث عن أعظم ملك أوتيه نبيء، وهو ملك داود وملك سليمان ـ عليهما السلام ـ، حيث قص القرآن الكريم ما بلغه من العلم بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة؛ ليشير من خلال تلك القصة القرآنية إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ ويحكي جانبا من حال ملكته ليكشف عن جانب من شخصيتها التي تميزت بصفات فريدة جعلتها تستحق أن يسجل القرآن الكريم مواقفها من صدر منها من حديث.

من بلاغة كلام بلقيس:

افتتحت بلقيس كلامها بنداء قومها فقالت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾، والنداء هنا غرضه تنبيه المخاطب وتهيئته لاستقبال ما سيلقي عليه، وقد أضفت إلى ندائها عناصر لغوية متكاثفة ذات تأثير في اللفت والإيقاظ مثل (أي)، و(ها) التي للتنبيه، ولعل السر من ذلك هو أن هذه المرأة أرادت أن تفصح عن أهمية ما ستعلنه عليهم بعد ندائها فعمدت إلى تكثيف عناصر النداء .

وخصصت نداءها إلى (الملأ) وهم أَشْرافُ القوم ورؤَساؤهم الذين يُرْجَع إلى

قولهم[1]؛ لتفضى إليهم بما في الكتاب الذي أتى إليها، وهذا الفعل يوحي بأنها حاكمة غير مستبدة بل هي حريصة على أن تعلم شعبها بالمستجدات من الأمور؛ ليشاركوها الرأي، وكان يمكنها باعتبارها «الملكة» وليس من أحد في بلاطها أرفع منها شأوًا، أن تتخذ ما شاءت من قرارات دون أن تحفل بهم أو بما يأتون به من آراء، فضلاً عن أن يهمّ أحدهم بالاعتراض عليها، لأنها أدركت بداهة أن أمراً بمثل هذه الجسامة خطورة قد يكون من شأنه أن يجشمها وعورة «حرب» تأتي على أخضر ملكها ويابسه!، فهداها عقلها وحكمتها إلى أن تستشير أصحاب الرأي في قومها.

وصدرت خبرها بالتوكيد﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ على الرغم من عدم إنكار من تخاطبهم لكلامها، وإنما آثرت التوكيد رغبة منها في تقوية مضمون كلامها عند من يستمعون خطابها وتقرير أهمية هذا الكلام في نفوسهم .

وعبرت بالفعل (ألقي) دون (رمي) أو(قذف)؛ لأن فعل الرمي غالبا ما يستعمله القرآن في العدوان كإيذاء الغير بالاتهامات الظالمة، ويستعمله في الحرب، وهذا غير مراد هنا فالكتاب أتى إليهم ليدعوهم إلى الإسلام، أما فعل (القذف) فيأتي فيما فيه حزم وشدة و قوة؛ لذا استعمله القرآن في المواجهات الكبري كالتي بين الحق والباطل، و فيما يثقل على النفس فعله، وهذا أيضا غير مراد هنا؛ لهذا قالت:(ألقي) لأن القرآن استعمله في دفع الشيء ثم أخذه، كقوله:﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (سورة النساء :٩٤)، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾ (سورة الأعراف:١١٧) ومعلوم أن نبي الله سليمان أرسل الكتاب وينتظر الرد، بدليل قوله للهدهد:﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، فناسب التعبير بـ(الإلقاء)، كما أن الإلقاء:"يستعمل في سرعة الهوى إلى الأرض"[2]، وهذا المعنى مناسب لفعل

(١) لسان العرب: مادة: ملأ .

(٢) التحرير والتنوير:٩/ ٥٢ .

الهدهد؛ لأن المتوقع من الهدهد أنه سيحلق عاليا ثم يلقي عليها الكتاب، كما أن الإلقاء يستعمل في السلم والدعوة إليه كقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ (سورة النساء:٩٠) وهذا يتناسب مع غرض الكتاب ومضمونه .

ويرى عدد من المفسرين أن بناء الفعل (ألقي) للمفعول؛ فيه دلالة على "جهلها بالملقي، أو تحقيرا له، حيث كان طائرا، إن كانت شاهدته"(١)، إلا أن هذا الرأي يتنافي مع أقوالهم التي سردوها في بيان الطريقة التي وصلت بها الرسالة إليها، فكل ماذكروه يدل على أنها رأت الهدهد وأيقنت قوة فطنته وشدة ذكائه، مما يرد كونها لا تعرف من أتى بالرسالة، وكذا يرد دلالة التحقير فإن كان الهدهد طائرا صغير الحجم، إلا أن شأنه عظيم، ولعل السبب في مجيء الفعل مبنيا للمجهول؛ أنها ملكة سيطرت على زمام أمور ملكها، فهي تحدث كل إنسان بقدر اختصاصاته، وهذا المشهد يجمعها مع مستشاريها تحدثهم لأخذ الرأي فيما ستفعله فيما ورد إليها من سليمان فلا داعي في أن تضيع وقتها وجهدها في بيان من أتى بالرسالة وكيف أتى، فليس هذا من شأنهم، وإنما أرادت أن تكرس جهدهم وطاقاتهم الفكرية في تفهم الفعل، واستيعابه دون أن تشتت أذهانهم بالفاعل، خصوصا وأن من أتى بالرسالة ليس رسولا من جنسهم كما هو معهود لديهم وهذا أدعى لتشتت الذهن، فعمدت إلى تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النَّظر عن محدثه، "ومن جهة أخرى.. فإن هذا التجهيل للمصدر الذي جاء بالكتاب، من قبيل حكمتها، إذ إن فيه إيحاء بأنها الملكة الساهرة على رعيتها، الحافظة لأمن دولتها، وأنها تملك قوى خفية لا يراها قومها، وعلى اتصال بأمور لا يعلمون طريقها، وفي ذلك سياسة منها للحذر من أهل مملكتها، وخواص مدبريها، أعانتها على ضبط أمورها وحياطة

(١) البحر المحيط :٨/ ٢٣٤

شعبها.. وهذا يضفى على الملكة بهذه الحركة البليغة البارعة، جلالا فوق جلالها، وروعة فوق روعة سلطانها". [١]

لهذا قالت (إليّ) فاستعملت حرف الجر(إلى) الدال على انتهاء الغاية، وأدخلتها على (ياء) المتكلم، وقدمت الجار والمجرور على (كتاب كريم)؛ لتدل على أن تلقي الكتب والمراسلات من اختصاصاتها، وهذا يتناسب مع عدم إفصاحها عن طريقة الإرسال ولا طبيعة الرسل، وفيه . أيضا . إشارة إلى دلالة تتناسب مع طبيعة المرأة وهي حب التملك للأشياء خصوصا إذا سيطرت، لهذا حرص النظم على تواجد حرف (اللام) بدلالته على معنى الملكية والاختصاص[٢] في أكثر الألفاظ التي صدرت من تلك الملكة، وهذا الأمر لم يوجد مع امرأة عمران حيث لم يتكرر حرف اللام في كلامها إلا أربع مرات؛ وذلك لأن كلامها كان مبنيا على الانفصال عن وليدها، والتخلص من ملكيته التامة كما سبق.

كما أن تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل(كتاب) يتجاوب مع بناء الفعل (ألقي) للمفعول في نشر عامل المفاجأة الدال على سرعة عملية إلقاء الكتاب.

وذكرت تلك الملكة لمستشاريها ثلاثة أشياء بخصوص ما ورد إليها، وقد رتبت تلك الأمور ترتيبا يكشف عما تمتعت به تلك الملكة من ذكاء وفطنة، ويدل على قدرتها الفائقة في إدارة شئون مملكتها، وفهم طبائع شعبها، وقد أتى كلامها على النحو الآتي: وصفها للكتاب ، مصدر الكتاب ، محتوى الكتاب، أما عن وصفها للكتاب فقالت:﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ وقيل: إنها وصفت الكتاب بكريم؛ " لحسن مضمونه وما فيه، فقد حوى من الشرف أمراً باهراً لم يعهد مثله من جهة المرسل والرسول، والافتتاح بالاسم الأعظم، إلى ما له من وجازة

(١) التفسير القرآني للقرآن : ١٠ /٢٤٠ .
(٢) الجنى الداني في حروف المعاني : ١٠٩.

اللفظ وبلوغ المعنى، أو لأنه من عند ملك كريم، أو لأن الكتاب كان مختوما"[1]، وعلى أي حال فوصفها للكتاب بالكريم يعد براعة استهلال منها؛ لأن وصف الكتاب بالكرم غاية في مدحه لهذا وصف الله به كتابه قائلا: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة الواقعة:٧٧) وهذا الوصف منها . مع كونها مازالت مشركة. يدل على أنها قرأت ما في الكتاب وأعجبت به، وبادرت لنقل الأثر الذي أحسته إلى نفوس الملأ من قومها؛ لعلمها بأحوال من تخاطبهم وما يمكن أن يحدثه محتوى هذا الكتاب في نفوسهم، فعمدت لهذا الوصف لتهدئة روعهم، وتهيئتهم لقبول ما جاء في الكتاب إن تحقق صدقه، كما أن وصفها بكونه كريما يدل على "أدب من أدب الملوك، تقابل به الملكة ما في الرسالة من أدب النبوة والملك معا"[2]

أما عن مصدر الكتاب فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ ولعل هذا استئناف وتبيين لما ألقي إليها، كأنها لما قالت إني ألقي إلي كتاب كريم، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت إنه من سليمان .

وقدمت مصدر الكتاب على محتواه . على الرغم من أن نبي الله سليمان " لم يقدم اسمه على (بسم الله الرحمن الرحيم) "[3]؛ وذلك لأنها ملكة تعرف أقدار أقدار الملوك ومنزلتهم في نفوس الرعية، وبقدر صاحب الكتاب سيكون الاهتمام بمضمونه والعناية به؛ لذا بينت أنه من سليمان؛ لإيقاظ أفهامهم إلى التدبر في مغزى الكتاب، ثم ذكرت ما أتى فيه، وهذا من باب تقديم الأهم والأعرف، ومعلوم أن محتوى الكتاب غريب عنهم؛ لأنهم يعبدون الشمس وكتاب سليمان يدعوهم لترك ما يعبدون، والتوجه لعبادة الرحمن الرحيم، فلم تبدأ كلامها بما يجهلون أو ينكرون، "ومعلوم أنه إذا كان للشيء صفتان من

(١) مفاتيح الغيب:٢٤/٥٥٤ ، نظم الدرر:١٤ / ١٥٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن : ١٠ / ٢٤٠.
(٣) مفاتيح الغيب : ٢٤ / ٥٥٤.

صفات التعريف، وعرف السامع اتصافه بإحداهما دون الأخرى، فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف الذات به يجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ، وأيهما كان بحيث يجهل اتصاف الذات به يجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبرًا". (١)

ومن الواضح أن الكتاب وقع عندها بمكان فأولته أهمية، والدليل على ذلك سرعتها في دعوة مستشاريها لعرضه عليهم و دراسته وأَخذ الرأي فيه، ووصفه بأنه كريم، ثم تأكيد ما أتى في الكتاب مرتين أولهما: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، وثانيهما:﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهذا التأكيد يكشف للمتلقي مدى انفعالها بالكتاب ومضمونه، وأبان عن اهتمامها واستعظامها، ونقل شدة حرصها على إذاعة ذلك وتقريره في نفوس من يسمعونها بنفس قدر الاهتمام والعناية اللذين تجدهما في نفسها، بقصد توجيه ذهن السامع لما سيخبر به، ولو خرج دون تأكيد للاحظ من يستمعون إليها فتورا في كلامها ولما وقع في نفوسهم التأهب لما دعتهم إليه.

وبعد أن سردت بلقيس ما ورد في كتاب نبي الله سليمان، وجدت أن الحاجة تستدعي إعادة تنبيههم واستحضار أذهانهم فكررت نداءها، وهذا التكرار ساعد بطريقة بديعة وإيجاز خلاب في كشف ما انطبع على ملامح من سمعوا هذا الخبر المثير، وكأن بأذهانهم قد شردت، وعيونهم أخذت تتقلب، ودار الهمس على ألسنتهم حتى كثر اللغط، وهنا وجدت تلك الملكة الحكيمة أنه يجب عليها أن تتدخل لاحتواء الأمر، فيأتي صوتها حازما محكما، يقطع مسارب الخواطر، ومجريات الأفكار قائلة: ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ .

كما أن تكرار النداء مرة ثانية أظهر عنايتها بما سيأتي بعد النداء وهو أخذ المشورة منهم، وهذا أدعى لشحذ هممهم لتقديم المشورة النافعة، كما أنها

(١) مختصر المعاني، التفتازاني: ٩١، دار الفكر، الطبعة: الاولى ١٤١١هـ.

حرصت أن يكون نداؤها هنا أيضا لكل الملأ، وكأنها تريد منهم مشورة متمخضة عن فكر الجماعة بحيث لا يتخلف منهم أحد .

وبعد النداء قالت: ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ وأتى فعل الأمر (أَفْتُونِي) لطلب النصح والرأي، وعبرتْ بلفظ الفَتوى التي هي الجواب في الحوادث المشكلة غالباً تهويلاً للأمر، ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرونَ على حلِّ المشكلاتِ المُلمَّةِ[1]، كما أن لفظ فتوى فيها معنى الحداثة في السن مع القوة [2]، وكأنها بذلك تقول لهم: أجيبوني في هذا الأمر الفتي؛ لتعلمهم أنها ما قطعت أمرها ولا أخذت قرارها وهي مازالت في مرحلة مبكرة من التفكير، وتحتاج منهم العون في أخذ القرار؛ لتستقوى برأيهم، وهذا من دلالات القائد الناجح الفذ، الذي يعني باستجلاب القوى، وتجميع أهل الحل والعقد حوله للاسترشاد برأيهم الجماعي في الخطب الجلل المحدق، ويشعرهم بأنه واحد منهم، وأن دورهم في صنع القرار لا يقل عن دوره، وهذا دليل حكمتها ورجاحة عقلها، كما أن فيه "استعطافًا لهم، واستمالة لقلوبِهم وتطييبًا لنفوسهم، ليساعدوها ويقوموا معها ولا يخالفُوها في الرَّأي والتدبير".[3]

وقالت: ﴿في أَمْرِي﴾ "مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها، لا بها وحدها؛ لأنها رمز للدولة وللمُلْك، والمضطلعة بما يجب إجراؤه من شؤون المملكة، وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها"[4] وهذا يجعلها هي صاحبة الشأن الأخير وهم أهل للرأي والمشورة.

---

(١) إرشاد العقل السليم:٦ / ٢٨٤ .

(٢) لسان العرب: (مادة : فتا).

(٣) إرشاد العقل السليم : ٦/ ٢٨٤، روح المعاني : ١٠ / ١٩٢.

(٤) التحرير والتنوير : ١٩ / ٢٦٢ ، تفسير الشعراوي : ١٧ / ١٠٧٧٨.

وقد أبرز النظم الحكيم جانبا من سماتها الشخصية وذلك عن طريق حكاية قولها:﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ فهذا القول يكشف عن طريقة تفكيرها التي اكتسبتها من واقع تجارب مرت بها حتى كونت لنفسها قاعدة ثابتة في كل شئونها لا تحيد عنها في جل أمورها، فقالت: ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ تأكيدًا منها على عدلها في حكمها، ومشورتها في اتخاذ القرار، والإتيان بكان في ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فيه دلالة على أن هذا الفعل كان من دأبها وعادتها معهم، وأن هذه الصفة تضرب بجذورها في أعماق الزمن الماضي، وما زالت موجودة في تعاملاتها معهم، وليست صفة طارئة عليها، وفي التعبير بـ(قاطعة) ما يقوي هذا المعنى، فالمبنى والمعنى يدلان على ذلك، أما المعنى فالقاف والطاء والعين أصلٌ صحيحٌ واحد، يدل على الصَرْمِ والإبانة[1] ،أي ما كنت آخذة قرارا نهائيا لا رجعة فيه إلا بمشاوراتكم، أما من حيث صياغتها فأتت الكلمة على صورة اسم الفاعل، ليتوجه النفي لها فيدل على ثبوت النفي، ويؤكد ثبوت صفة الشورى في حكمها.

وأتت بـ﴿ أَمْرًا ﴾ نكرة واقعة في سياق النفي لتدل على العموم، يعنى: أي أمر وكأنها تقول: إذا كانت تلك عادتي معكم في كل أموري، فاستشارتكم في هذا الحدث العظيم أولى، وهكذا توغلت في نفيها، ليأتي قولها: ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ كاشفا عن غايتها، واستعملت (حتى) وهي حرف يدل على انتهاء الغاية، ويهيئ الذهن عند سماعه أن ما سيأتي بعده هو نهاية المراد فلا شيء بعده، إذ إنها لاتجر إلا الآخر أو ما اتصل به، و(تشهدون) فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد، ويكشف النظم الحكيم عما أرادته من كونها لا تقطع أي أمر إلا بشهادتهم عن طريق الرسم وذلك عن طريق حذف (الياء) من الفاصلة في (تشهدون) وأصلها (تشهدوني) لأن الأشياء والأمور مطلقة حتى تقيد بالتملك، أو بالإضافة، وخصت الياء بالمتكلم دون المخاطب؛ لأن الياء

(١) مقاييس اللغة: ٥/ ١٠١ .

عندما تكون الحرف الأخير؛ يزاد إلى دلالة التحول فيها؛ الاستقرار والامتداد، وأبلغ الاستقرار أن يكون الشيء ملكًا لك وبين يديك، وغير ذلك لا تصرف لك عليه، فلما أرادت ملكة سبأ أن تنفي قطع أي أمر دون شهود الملأ، فهم يشهدون باستمرار تصرفها في أمور دولتها؛ حذف النظم الكريم (ياء) التحول؛ للدلالة على إشهادها المستمر لهم في كل أمورها قبل أن تقطع رأيًا فيه(١).

واستعملت لفظة (تشهدون) دون غيرها؛ لأنه يدلُّ على حضور وعلم وإعلام(٢)، ومرادها يحتمل كل هذه المعاني، فهي قد دعتهم للحضور فلبوا، ومعلوم أنها دعت أصحاب المشورة وهم أهل علم، وبعدما قصت عليهم الحدث تتنتظر منهم إعلامها بالرأي والخَبر القاطع ؛ لذا قالوا: إن الشاهد هو "العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ"(٣)، وكل هذه المعاني لا تجدها مجتمعة إلا في (تشهد)، كما أن الأَصل في الشهادة: الإِخْبار بما يشاهد ويعاين(٤)، وبهذا تكون قد جعلت أمرها مما يشاهد ويحس، وهذا يحمل رسالة لمن تخاطبهم بأن يشحذوا عقولهم ويدرسوا القضية من كل جوانبها، ويستحضروها في أذهانهم استحضار من يرى الشيء بعينه؛ لأنها ستبني رأيها وتتخذ قرارها، على ما سيقرون به، وهذا الأسلوب يعد "صورة كريمة، للحاكم الحكيم غزير العقل جم الأدب الذي يتوخى الخير، والأصلح لرعيته.. فلا يبرم أمرا إلا عن رأى ومشورة، يشارك فيها أهل الرأى والمشورة غير مستبد برأيه كي لا يعرض ملكه لمهاوي أخطاء المستبدين"(٥)

---

(١) يراجع أسرار حذف الياء في القرآن – أبو مُسْلِم/ عبْد المَجِيد العَزَابْلِي، مخطوط على موقع ملتقى أهل التفسير، منشور بتاريخ: ١/ ٨/ ٢٠١٠م.

(٢) مقاييس اللغة:: ٣/ ٢٢١ .

(٣) لسان العرب: مادة (شهد).

(٤) السابق: مادة (شهد).

(٥) نظم الدرر:١٤/ ١٥٩، التحرير والتنوير:١٩/ ٢٦٣، التفسير القرآني للقرآن : ٢٤١/١٠.

وبعد أن سمع الملأ حديثها، ووعوا ما فيه جاء ردهم مشتملا على إظهار قوتهم؛ ليعبروا بذلك عن ميولهم إلى الحرب، إلا أنهم فوضوا الأمر إليها وأظهروا طاعتهم لها فيما ترى، فكانت أكثر منهم حنكة وأرشد رأيا في معالجة الأزمة، لما رأته من دلالات ظهرت إليها من شأن كتاب سليمان وطريقة إرساله غير المعهودة، فمن يكون الطير مسخرا له وجندا من جنوده، لابد أنه عظيم الشأن واسع الملك، جيشه متنوع الأسلحة، يمتلك قوة أكبر من طاقة البشر، مما جعلها تنحي جانب القوة والمواجهة؛ كي لا تغامر بجيشها وتراهن بقوته في معركة قد تكون غير متكافئة، قد تكون نتائجها إنزال ويلات الحرب وشدائدها العظام وعواقبها الجسام بنفسها وقومها؛ لهذا رأت أن تستكشف جانب الخصم وتسبر غَورَه، وتختبر قدراته، فتتعرف على كل مقتضيات الأمر وساعتها تتخذ قرارها في ضوء ما تأكدت منه، وهذا سلوك حكيم يشف عن جانب من مهارتها السياسية في التعامل مع الأزمات؛ لذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا...﴾ ويتجلى قدر كبير من ذكائها في ردها على مستشاريها حيث لم تفصح عما ستقوم به من عمل من أول وهلة، حتى لا يظن أنها ضربت برأيهم عرض الحائط، ولم تقطع برأى، بعد أن فوض إليها القوم الرأى والأمر، بل جاءت تعرض عليهم وجهة نظرها، وأتى جوابها مرتبا حيث عمدت إلى تزييف ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه، مبينة لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها، لما رأته منهم من عدول عن الصواب وغفلة عما قد يقع عليهم من جيش سليمان، كما قدمت الرد على مشورتهم على عرض رأيها كي لا يعترض أحد منهم على رأيها، وجاء كلامها مبدوءا بحرف توكيد (إن) الداخل على الجملة الاسمية؛ للاهتمام بما ستخبرهم به ومدى تأكدها من تحققه، نتيجة ما عاينت من أحداث في واقعها السياسي، كما أن الخبر بالنسبة للمتلقين يعد موضع شك ومراجعة، بدليل أنهم رأوا في قوتهم العسكرية ما يُمَكِنَهُم من دفع أي خطر قد ينزل بهم .

وقولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا...﴾ تعريض منها بما قد يحدث إن غزاهم سليمان . عليه السلام . فأرادت تحذيرهم من أضرار استفزاز الخصم، وقد برعت في صياغتها حيث صاغت كلامها في صورة الشرط وذلك ساعدها على نقل كلامها من حدث خاص إلى حدث عام، وكأنها تعرض لهم وقائع مختلفة قد حدثت بالفعل، ويجب النظر إليها وأخذ العبرة منها، وهذا ناسبه أيضا التعبير بلفظة (الملوك) جمعا وكأنها عاينت ذلك أكثر من مرة، كما عبرت بـ(قرية) دون (مملكتنا)؛ كي لا توجه لهم الحديث بشكل مباشر، فتنسب لهم الهزيمة فتقتل فيهم روح القتال والشجاعة والدفاع عن مملكتهم، وهذا شأن القائد العظيم أن يحافظ على رعيته من الهلكة دون أن يزعزع قدرتهم على الصمود أو أن يهدم قواهم النفسية .

كما أن الشرط ساعدها على أن يأتي كلامها في صورة الأمر المقطوع بحدوثه حيث عبرت بـ(إذا) الدالة على تحقق الشرط معها، وما ذلك إلا لما عاينته في حياتها وأدركته بتجاربها من شواهد التاريخ الماضي، وما عرفته بخبرتها من طبائع الملوك الظالمين وما يقع منهم عند غزوهم من تخريب وإذلال ونحوه، حتى أصبح هذا الأمر عندها محقق الحدوث لا شك فيه ولا مراء، وأتى فعل الشرط وجوابه ماضيين، للدلالة على تحقق الحدث لديها فالإفساد حادث لا محالة عند دخول الملوك عنوة بالقهر والغلبة، وفي استعمالها الفعل (دخلوا) دون (غزوا) ما يدل على أن الملك المغير " ساعةَ أن يصل إلى بلد لا يضمن النصر؛ فيُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرف أنه انتصر، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها"[1] .

وعطفت على جواب الشرط ما يتمم معناه فقالت:﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لتردعهم عن التسرع في القرار، وهي هنا قد عممت المصاب بقولها :(أفسدوها) ثم خصصت أصحاب المشورة بنوع آخر من المصائب،

(١) تفسير الشعراوي :١٠٧٧٩/١٧ .

وهذا أردع لهم، ومن الملاحظ أنها حينما عممت المصاب استعملت جملة (أفسدوها) ولما وجهت للملأ كلامها عمدت إلى الإطالة، فلم تقل (وأذلوا أعزة أهلها) مع أنه أخصرمن قولها: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ "للمبالغة في التصيير والجعل"(١)، وقد استعملت بلقيس المطابقة بين (أعزة) و(أذلة)، لبيان وتأكيد وجهة نظرها بعبارات وجيزة مختصرة، قارنت فيها بين حالهم الآن، وحالهم إذا أعلنوا العداء لسليمان فأتى إليهم غازيا، مما يجعلهم يردون عن رأيهم ويذعِنون لرأيها.

ومن الواضح أن الملكة مؤمنة برأيها إيمانًا قويا لذا ذيلت كلامها بما يؤكده فقالت(٢):﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذا تثبيت لكلامها وتقرير وتأكيد بأن ما أخبرتهم به من صفات هو من عادة الملوك المستمرة ؛ لذا عبرت بـ(كذلك) التي تفيد هنا التثبيت والتأكيد، وكأنها تقول: نعم هذا هو فعلهم، وتلك هي صفاتهم التي يداومون عليها؛ لذا أتت بالفعل المضارع (يفعلون)؛ للدلالة على التجدد والاستمرار.

وقد تكون هذه الخاتمة تحولا منها من حديثها العام عن شأن الملوك القائم على خبرتها، إلى الحديث عن سليمان وجنوده، لأنها لما بينت لهم عادة الملوك من خلال مشاهد التاريخ السابقة، بينت أن هذا ملك شأنه شأنهم ففعله سيكون كفعلهم، "وهذا من باب الاستدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب"(٣)، وبهذا تكون الخاتمة" تأسيسا لا تأكيدا"(٤).

---

(١) روح المعاني : ١٠/ ١٩٣

(٢) وذلك إذا سلمنا أن قوله ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ من كلامها لا من كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأنه قد " اختلف أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها؟ والأقرب أنه من كلامها" ، مفاتيح الغيب:٢٤ / ٥٥٥.

(٣) التحرير والتنوير : ١٩ / ٢٦٦.

(٤) روح المعاني ١٠ / ١٩٣

وبعد ماقدمته بلقيس من كلام هدفت من ورائه إدخال الخوف والفزع في قلوب قومها من وطأة الحرب غير المتكافئة، وما تؤول إليه من نتائج أليمة، أصبح الآن المجال ممهدا أمامها كي تعلن عن رأيها وتفصح عما ستفعله، فقالت:﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ هذا الرأي يبين لنا تجربة الملكة وذكاءها ووعيها للأمور السياسية وطبيعة حكم الملوك وسلوكهم، فأتى رأيها عاقلا متزنا يرتكز على حسابات دقيقة، وعمدت إلى استنطاق عقلها بدلا من استثارة عاطفتها وانفعالاتها، ورأت أن تتأكد بالتجربة فيما إذا كان سليمان ملكاً أو نبياً؛ لذلك رأت أن ترسل له هديةً، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة، الذي لا يصرفه عنه مال، ولا عرض من أعراض الدينا .

وبدأت كلامها بـ(إنّ) الدالة على التأكيد الداخلة على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت؛ لتأكيد كلامها و عزمها على فعلها، وتصريحا منها بأنها مزمعة على رأيها لن يصرفها عن ذلك صارف إذ في ذلك مصلحة رعيتها، وهذا الإصرار ناسبه أيضا التعبير باسم الفاعل (مرسلة) دون الفعل، لما في الاسم من دلالة على الثبوت، وكأنها بهذا تريد أن تضفي على توكيدها توكيدا آخر، وهذا يكشف عما تمتعت به تلك المرأة من ثقة في النفس، كما أن هذا التوكيد يدل على أنه تأكد لديها أن رأيها قد يكون فيه شيء من الغرابة عند من يسمعها، لأنه خالف توجههم.

ولعل في جنوح بلقيس إلى السلم دون الحرب ما يكشف عن جانب نفسي من شخصية المرأة، يختفي خلف أستار شخصية الملكة، فمن المعلوم أن المرأة بطبيعتها تنأى عن الخيارات الحربية وتكره العنف والتدمير، وتميل إلى التدبير والحيلة، "تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة"[(١)]، فهي مخلوق عاطفي مسالم؛ لهذا دعتها فطرتها وطبيعتها

(١) ظلال القرآن : ٥/ ٢٦٠٤

الأنثوية إلى سلاح الإغراء والمساومة والمخادعة، فالمرأة في كثير من الأحيان لا تقوى على المواجهة الصريحة القاطعة والحاسمة، لكنها تركن إلى المراوغة والمداهنة، وقد ظهر ذلك واضحا في تخير ألفاظها، حيث آثرت لفظة (مرسلة) على غيرها كـ(باعثة)؛ لتعلن أنها برأيها هذا قد مالت إلى الطريق السهل؛ لأن (أرسل) تحمل معنى السهولة واليسر واللين[١]، وهذا لم يكن يتحقق مع لفظة أخرى كـ(باعثة) إذ إنها تحمل معنى القوة والشدة[٢]، ويؤكد ذلك التعبير بلفظة (هدية) وهي: مَا أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَى ذِي مَوَدَّةٍ[٣]، وأتت (هدية) نكرة منونة للدلالة على تعظيمها.

ومن يدقق النظر في قول سليمان – عليه السلام – حينما رأى الهدية يجده أنه قال:﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ فعبر عن الهدية بالمال، وهذا يختلف عما عبرت به بلقيس، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة كل منهما، فالمرأة تميل إلى التنميق في اختيار ألفاظها؛لذا فهي تجنح إلى الخطاب غير المباشر، بخلاف الرجل فهو يميل إلى الخطاب المباشر الخالي من التنميق.

واستعملت ضمير المتكلم المفرد(إني)؛ لتبين أن اتخاذ القرار بعد المشورة راجع إليها، كما أن فيه إشارة إلى أن مهمة مخاطبة الملوك كانت من اختصاصاتها، وهذا التعبير عن نفسها بصيغة المفرد كان مطردا في القصة (إني ألقي، أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرا) وهذا على خلاف عادة الملوك حيث إنهم يميلون لاستخدام صيغة الجمع؛ لإظهار عظمة ملكهم، وهذا الأمر قد ظهر جليا عند سليمان وذلك في: (﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل : ١٦)، ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ﴾ (النمل: ٢٧)، ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ (النمل: ٣٧)، ﴿وَأُوتِينَا

(١) يراجع مقاييس اللغة : (رسل) : ٢/ ٣٩٢ .
(٢) يراجع لسان العرب : (بعث) .
(٣) يراجع مقاييس اللغة : (هدى) : ٦/ ٤٣ .

الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (النمل : ٤٢)، ولعل السبب في عدولها عن استعمال لفظ الجمع على الرغم مما تتمتع به من مكانة اجتماعية هو كونها امرأة قبل أن تكون ملكة، يتملكها ما يتملك النساء من شعور بالضعف والانكسار، وهذا لا يناسبه التعبير بضمير العظمة، وأتى حديثها عن سليمان بصيغة الجمع في (إليهم)، جريا على عادة الملوك في مخاطبة بعضهم بعضًا بصيغة الجمع بقصد التعظيم، خصوصا وأنها وقع في نفسها تعظيمه لما رأته من دلالات تشير بعظيم شأنه، بل وقدمت، (إليهم) على (بهدية) على الرغم من كونهما متعلقين بـ(مرسلة) لتدل على أن اهتمامها الأكبر منصب على المرسل إليه ومعرفة حقيقته فقدمت ما هي به أعنى، كما عبرت باسم الفاعل في قولها: (نَاظِرَةٌ) لتدل على شدة ترقبها للأمر، وتعلق ذهنها به، وكأنها ستظل عينها مفتوحة تراقب الأمر حتى يستقر عندها الخبر اليقين، ويقوي ذلك مجيء حرف العطف (الفاء) الدال على الترتيب والتعقيب.

ومن الملاحظ أن بلقيس صرحت بأنها سترسل جمعا من الرسل والدليل على ذلك التعبير بلفظ الجمع (المرسلون) وهذا يعكس العرف السياسي الذي يقتضي إرسال مبعوث رسمي على رأس وفد مكون من عدد من الأفراد، والذي يقوي هذا أن سليمان حينما وصل إليه الوفد خاطب رئيسهم بصيغة الإفراد فقال. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَان ، ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ﴾.

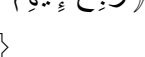

المطلب الثاني

حديثها مع سليمان . عليه السلام

وجاء ذلك في قوله تعالى:﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ* وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (سورة النمل من الآية، ٤٢: ٤٤)

السياق والمعنى:

لما علم سليمان . عليه السلام . بأمر خروج بلقيس إليه أراد أن يجهز لها معجزة فأمر جنده بإحضار عرشها، فلما أتت دار بينهما حوار كشف عن جانب من ذكاء بلقيس وانتهى بإعلانها إسلامها لله رب العالمين .

من بلاغة حديثها مع سليمان عليه السلام:

يعد هذا الحوار أول حوار مباشر بين سليمان . عليه السلام . وبلقيس، فأراد سليمان أن يختبر ذكاءها فقال لها:﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾، ولم يقل: (أهذا عرشك)؟، ليُعمِّي عليها أمر العرش، وليختبر دقة ملاحظتها، وكي لا يكون تلقينا لها وإفصاحا لحقيقة العرش، فيفوتَ ما هو المقصودُ من الأمرِ بالتَّنكيرِ من إبرازِ العرشِ في مَعْرضِ الإشكالِ والاشتباهِ حتَّى يتبينَ حالها، إلا أنها ردت عليه بجواب دبلوماسي غير قاطع قائلة:﴿ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، وهذه الإجابة تنبيء عن كمال عقلها، ودهائها، وما تمتعت به من ثبات كبير ونظر ثاقب، فلم تجزم بأنه هو عرشها؛ لاحتمال أن يكون مثله فتكون كاذبة، ولا نفته النفي البالغ فيكون هو فيكذبونها، ويعد ذلك تلويحًا منها بما اعترى العرش من تنكير جعله مغايرا لعرشها في بعض الصِّفاتِ مع اتحادِ الذاتِ، وأبرزت ذلك في صورة تشبيهية، وأتت بـ(كأن) الدالة على غلبة الظن في اتحاده معه مع الشك في خلافه، فهي تفيد قوة الشبه حتى شككت نفسها في التغاير بين الأمرين،

وقابلت تشبيهه بتشبيه؛ ليشاكل الجواب السؤال[1]، وهذه المشاكلة تدل على ما تمتعت به من بلاغة وفطنة، فإذا كان العرش قد نُكر والسؤال قد صيغ بأسلوب محير، فإن جوابها أيضا لم يكن قاطعا، لتترك المخاطب في حيرة.

وبعد أن رأت من المعجزات ما جعلها تتأكد يقينا من صدق سليمان لم تجد سبيلا إلا أن تعلن إسلامها، وتنقاد لأمر ربها، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تدرجت بلقيس في كلامها فقدمت" التخلية وذلك في قولها:﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحلي بالإيمان وذلك في قولها: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وهذا إقرار بخطئها، وإخبار عن إسلامها، ومن الواضح أن بلقيس قد قويت في نفسها رغبة الإيمان بما دعاها إليه سليمان، فأتى كلامها مصدرا بنداء، عمدت فيه إلى حذف أداة النداء، وياء المتكلم، لتكشف عن التصاق هذه الحقيقة من نفسها، فهي الآن أحست أنها تلبست بالإيمان، فلاتحتاج إلى رفع نبرات صوتها ولا مدها بالنداء على ربها لما تشعر به من قرب نحوه، لهذا خرج كلامها ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ مؤكدا؛ للكشف عن شدة انفعالها بهذا الأمر ولإظهار معتقد نفسها في كلامها وإبرازه كما أحسته، فتزداد نفسها يقينا وثقة بسليمان.

ويختم النظم كلامها معلنا إسلامها بقولها: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبين (أسلمت) و(سليمان) جناس ناقص، وعبرت بلفظ المفرد في أسلمت؛ لأنها هنا تعلن عن نفسها دون التعرض لغيرها، فليس من عادتها أن تفرض رأيها على أحد وإن كان من رعاياها، كما أنها قالت:﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ ولم تقل: (لسليمان)؛ للإشارة إلى أنها أخلصت الاستسلام لله وحده، ولو كان سليمان . عليه السلام ـ صاحب تلك المعجزات، فهي لم تسلم لسليمان وإنما صارت

(١) يراجع مفاتيح الغيب:٢٤/٥٥٨ ، نظم الدرر:١٤/١٦٧، وإرشاد العقل السليم:٦/ ٢٨٨، وروح المعاني:١٠/ ٢٠١ .

معه على درب الحق تابعةً له مقتديةً به، "ولعل كبرياء الملك جعلها لا تخضع لسليمان، وتعلن إسلامها لله مع سليمان، وكأنها تقول له: لا تظن أنِّي أسلمتُ لك، إنما أسلمتُ معك، إذن: أنا وأنت سواء، لا يتعالى أحد منا على الآخر، فكلانا عبد لله"(١)؛ وهذا يتفق مع ختام الآية، إلا أنها حفظت لسليمان حقه فلم تقل:(وَأَسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين) بل قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾، اعترافا منها بأن سليمان كان دليلها إلى الله، وسبب إيمانها به، "وعمدت إلى ذكر الاسم الأعظم الدال على ذات المستجمع للصفات الموجبة للإلهية؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، ثم ختمت بقولها: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾؛ لبيان تفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس."(٢)

وقد أتى كلامها حاملا إقرارا بالخطأ، واعترافا بالذنب، وإعلانا للحق والاستسلام له، دون تردد أو خجل؛ فلم يقع بين اعترافها وإعلان إسلامها أي فاصل حيث خلا كلامها من علامات الوقف، ليكشف عن مدى اقتناعها أو عدم ترددها بما فعلت.

وبهذا تكون بلقيس نموذجا دل على إمكانية انتصار المرأة على عوامل ضعفها الأنثوي الذي قد يؤثر سلبا على طريقها في التفكير أو إدارة الموقف، أو التردد في اتخاذ قراراتها .

---

(١) تفسير الشعراوي: ١٧ / ١٠٧٩٢ . .

(٢) نظم الدرر:١٤/ ١٧٣ ، إرشاد العقل السليم : ٢٨٩/٦.

المبحث السادس
كلام آسيَة امرأة فرعون

يعد هذا النموذج صورة للمرأة التي عاشت في بيت الكفر مغرقة في بحر اللذات اللامحدود، كل ما تتوق إليه النفوس مهملا ومطروحا عند قدميها، إلا أنها تستعلي على هذا كله بإيمانها، وتطلب النجاة منه، وقد ورد كلام آسية في موضعين أولهما: في سورة القصص حيث خطابها مع زوجها فرعون، والموضع الثاني في سورة التحريم حيث مناجاتها ربها.

❁❁❁❁❁

المطلب الأول
حديث امرأة فرعون مع زوجها

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ (سورة القصص، الآية:٩)

المعنى والسياق:

ورد هذا القول حينما حُمل موسى عليه السلام . من اليم إلى فرعون وهمّ بذبحه، إلا أنّ الله ألقى حب هذا الطفل في قلب زوجته، فأخذت تحاج عنه وتذب دونه، وتحببه إلى فرعون كي لا يقتله حتى استجاب لها.

من بلاغة حديث آسية مع زوجها:

استهلت آسية حديثها مع زوجها بقولها:﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾ وبنت كلامها على حذف المسند إليه؛ لسرعة الوصول لمطلوبها بأوجز عبارة، حيث رأت من فرعون عزما على قتل موسى . عليه السلام .،مما جعلها تسرع إلى ما يرده عن فعله بعدما تحركت فيها غريزة الأمومة، وصرخت في أعماقها عواطف الأم نحو هذا الطفل، فأتى الحذف مصورا ما أصابها من لهفة وفزع.

وعبرت بـ (قرّ)؛ لأن الْقَافُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدَهُمَا عَلَى بَرْدٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ وسكون[1]، وعلى هذا يكون قولها:﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾ كناية عن السرور والسعادة، والسعادة تفهم من أصلي الكلمة، فعلى الأصل الأول تكون: قرة العين بمعنى ثباتها وعدم حركتها، فالعين تستقر على ما يسرها وتقنع به فلا تطمح إلى التطلُّع لغيره من شدة جماله، كما أن الإنسان إذا كان مضطربا شت نظره وأخذ يدور هنا وهناك، فإن اطمأن سكن واستقر، وقد يكون السرور من ناحية الأصل الثاني، حيث إن العين متى كانت هادئة لزمتها البرودة فإن ارتفعت درجة حرارتها مرضت حتى زعموا أن للسرور دمعة باردة، وللغم دمعة حارة، كما أن العرب تجعل الحر كناية عن الشر والشدة والبرد كناية عن الخير[2]، كما بنت امرأة عمران كلامها على الجملة الاسمية الدالة على ثبوت الخبر، وكأنها تقول له: أن البهجة التي أوجدها لنا والسعادة التي حصلت برؤيته سعادة ثابتة ليست عارضة، فهي موجودة مادام هو بيننا، وهذا أدعى لقبول طلبها.

ومن الملاحظ أن لفظة (قُرَّتُ) رسمت هنا بـ(التاء) المفتوحة ولم ترسم بـ(التاء) المربوطة، في حين أنها وردت في موضعين بـ(التاء) المربوطة، أول هذين الموضعين هو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان، من الآية :٧٤) ، أما الموضع الثاني فهو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة من الآية: ١٧) ومن يتأمل الموضعين يجد أنهما قرتان لم تتحققا بعد، ولا يعلم متى يتحققان إلا الله، وكأنهما في حيز مغلق غلف بدائرة الغيب، فالآية الأولى دعاء لشيء مرغوب في حدوثه، وطلب لم يحدث محبب للنفس غير حاصل وقت الطلب، أما الآية الثانية فهي وعد يتحقق في الآخرة خفى كنهه عن أنظار الخلائق، فناسب ذلك

(١) مقاييس اللغة (مادة: قر) : ٥ / ٧ .
(٢) لسان العرب (مادة : قرر) .

التعبير بالتاء المربوطة المغلقة، أما ما ورد على لسان آسية فهو متحقق وقت كلامها، موجود ساعة كلامها مطلعة عليه، فهذا موسى بين يديها يملأ السرور نفسها التي بين جنبيها ، فبسطت (تاء) (قرت) مطابقة مع الواقع الذي حصل لها وأنكشف أمام عينيها.

ومن الملاحظ أن هذه الزوجة قد درست زوجها وتعرفت على طريقة تفكيره وطبيعة سلوكه فسهل عليها معرفة مكامن قوته وضعفه، واستغلت ذلك في إنهاء هذا الموقف لصالحها، حيث عرفت قدرها عند زوجها وفرط حبه لها، فاستغلت تلك المنزلة للضغط عليه واستمالته كي ينزل علي رأيها، وظهر ذلك في قولها﴿ لِي وَلَكَ﴾ فقدمت ضميرها على الضمير العائد عليه، وهذا يدل على ذكائها وحصافتها، يقول الإمام الألوسي: ﴿ وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله"[(١)]، كما أنها آثرت عطف الضميرين (لي ولك) بدلا من دمجهما (لنا) ولعل ذلك لقصدها " تفخيم شأن القرة "[(٢)]، أو أن تلك المرأة التي خبرت طباع زوجها علمت أنه لن يلين جانبه لهذا الطفل لما اعتادته منه من تقتيل للأطفال، في حين أنها تأكدت من لين جانبها وتعلق قلبها بهذا الغلام، فأرادت أن تفصل بين حدوث القرة لنفسها وبينه، وقد يكون الفصل هنا وقع منها بقصد بيان اختلاف الغاية، فقرة العين بالنسبة لها فيما تملكها من شعور بإحساس الأمومة والحنين إلى اتخاذه ولدًا تقر بها عينها فهي " لم يكن لها ولد"[(٣)]، أما بالنسبة إلى فرعون فلعلها تومئ بأنه إذا كبر واستوى كان سندا له في ملكه وريثا لعرشه، فلما اختلفت الغايات فصلت الضمائر، وعلى هذا يكون تقديم (لي)على(لك) سببه هو تقدم غايتها في

(١) روح المعاني : ١٠/ ٢٥٨.
(٢) السابق : ١٠/ ٢٥٨.
(٣) مفاتيح الغيب: ٢٤ / ٥٨١.

الوجود على غايته، إذ إن غايتها ستتحقق بمجرد الإبقاء على حياة الطفل، أما غاية فرعون فلن تتحقق إلا بعد فترة من الزمن.

ومن الواضح أن آسية وجدت قبولا لكلامها عند فرعون مما دفعها للتصريح بعدم قتل الطفل فقالت:﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ والنهي هنا بقصد التوسل والاسترحام، والضمير يحتمل أن يكون لفرعون على سبيل التعظيم، ويكون إسناد القتل إليه من باب المجاز العقلي؛ لأنه هو من يأمر بالقتل وجنوده يقتلون، ويكون هذا أيضا من فهم المرأة لطباع زوجها إذ إنها تعرف فيه حب تعظيم النفس، فعمدت إلى ذلك حتى تستميل جانبه، ويحتمل أن يكون الضمير للجنود المأمورين بقتل الصبية، فيكون في الكلام التفات عن خطابها لفرعون بعد أن أمنت جانبه إلى خطاب الموكلين بقتل الأطفال، في محاولة منها لاستدراك الأمر قبل وقوعه ظنا منهم أن أمر هذا الغلام كغيره ممن قتلوهم من قبل، وحمل الضمير على الجنود يشي بذكاء تلك المرأة ويعد إغراءً لفرعون وحثا له على العفو، إذ إنها نأت عن ذكر اسمه ساعة أرادت أن تصرح بالقتل كراهية منها أن تسند إليه فعل القتل، وهذا أيضا من باب تعظيمه وكأنها تقول له: مثلك أعظم من أن يفعل هذا.

ومن الملاحظ أن آسية رتبت كلامها بما يحقق لها أفضل النتائج فبادرت باستعطافه من خلال ما درسته من شدة تعلقه بها وذلك لاستخلاص قرار سريع منه؛ ليكون تمهيدا لما ستطلب، ثم بادرت بطلب وقف القتل قبل ذكر المنفعة خوفا عليه من أن يلحقه أذى، وبعد أن أفصحت عن طلبها، أردفته بذكر المنفعة المتحصلة من بقائه فأتت بقولها:﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾؛ ليكون في موقع العلة لمضمون جملة:﴿ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ و قضى نظم الكلام "بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدمة لأنه أشد تعلقا بالنفس فهو يشبه المعلوم البديهي، وجعل الوازع العقلي بعد النهي علة لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهلة التفكير بعد

سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعي فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه"[1].

وصدرت علة النهي بـ(عسى) لإفادة الرجاء المأمول في أمر غائب، ثم قدمت في تعليلها مبررين من شأنهما إغراء فرعون واستمالة قلبه، أولهما: رجاء حصول النفع منه، وثانيهما: اتخاذه ولدا، وقد عمدت الزوجة إلى استعمال (أو)؛ لتعدد من فرص النفع التي يمكن أن يجنيها فرعون من هذا الغلام، فإن فاته واحدة وجد غيرها، وهذا أدعى للوصول إلى مرادها، ويجوز أن يكون من باب عطف الخاص على العام، فتكون قد أغرته أولا بحصول النفع العام، ثم خصصت اتخاذ الولد مع أنه داخل في المنفعة، لإحداث إثارة لشعور الأبوة بداخله فيميل لتركه.

ومن الملاحظ أن الزوجة قد جمعت هنا ضميرها مع ضمير زوجها فقالت:﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ دون أن تقول:(عسى أن ينفعني وينفعك)كما فعلت في (لي ولك)؛ وذلك لأن الكلام هنا في سياق بيان الثمرة المرجوة من إبقاء الطفل حيا، وهذه الثمرة ستعود عليهما معا، بخلاف المقام الأول (لي ولك) فالغرض كان الإلحاح على فرعون بعدم قتل الغلام، فعمدت إلى الفصل وكأنها تقول له: إن لم يكن لك فيه قرة عين فاتركه من أجلي فأنا لي فيه قرة عين، أما النفع واتخاذ الولد فهما متحققان لكليهما إذا تمت الموافقة على ترك الطفل على قيد الحياة، كما أنها أحست أنه لن تقر عينه بالغلام، فكرهت الجمع بين ما هو متحقق لديها، وما هو مشكوك في وقوعه عنده، لأن المنفعة واتخاذه ولدا أمران لا يشك في تحققهما لهما معا، فلم تجد حرجا في أن تعبر بضمير الجمع في ذلك .

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير: ٧٩/٢٠ .

المطلب الثاني

مناجاة امرأة فرعون مع ربها

وردت هذه المناجاة في سورة التحريم، وذلك في قوله تعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة التحريم، الآية:١١).

السياق والمعنى:

أتى كلام زوجة فرعون هنا في سياق مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين في شخص امرأة مؤمنة؛ ليبين من خلاله أن عصيان العاصي لا يضر المطيع حتى وإن كان هذا العاصي أقرب الناس إليه، ويعد هذا المشهد أنموذجا عاليا لامرأة تجسد في شخصيتها الشموخ والتسامي عن ملذات الدنيا ومتعها، فاستنارت بصيرتها بنور الهدى، فآمنت بالله، وأبصرت طريقها إليه وسط هذا الظلام الكثيف المتراكم، وضحت في سبيل عقيدتها بالدنيا وما فيها، تجردت لله من كل هذه المؤثرات، وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات؛ لتظفر بما عند الله فكان كلامها جديرا بأن يسجل في كتاب الله ليكون عبرة لكل من يتلوه.

من بلاغة مناجاة آسية ربها:

استهلت امرأة فرعون كلامها بنداء توسلت فيه إلى ربها بربوبيته . ﷻ . التي من معانيها: التربية والعناية والإصلاح والتدبير، وإجابة الدعاء، حيث إنها في محنة ومعلوم "أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين"(١)، وجاء نداؤها دالا على شدة تعلقها بربها فاستعملت لفظ (رب) وحذفت أداة النداء (يا)؛ للمبالغة في تصوير قُرب المنادَى "رب" حيث إن معناه: المربي، والسيد، والمالك. وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريبًا، حاضرًا لا يحتاج في ندائه إلى وسائط، ومن الواضح أن المرأة قد استشعرت كل هذه الأمور في نفسها .

---

(١) الكشاف : ٤/ ٥٧٣.

وأتى قولها: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا﴾ في صورة الأمر المراد به الدعاء والرجاء، وطلبت في دعائها أمورًا أولها: (بناء بيت في الجنة) ولعل الدافع من وراء ذلك هو تسلية لنفسها عما تركته من نعيم الدنيا، إذ إنها كانت تعيش في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، فهو من أعظم القصور وأفخمها يبهر العقول، كأن الجمال يصول بين جنباته ويجول، إلا أنها في وسط هذا كله ترفع رأسها إلى السماء مستعلية بإيمانها على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة، لتسأل ربها أن يجعل لها في الجنة بيتا عوضا عما تركته، ولعل آسية قد آثرت لفظة البناء على غيرها (كاجعل لي بيتا)؛ لأن لفظة البناء تحمل بين طياتها معنى الزواج[١]، وبهذا يكون طلبها قد اشتمل علي بيت وزوج، إلا أن حياء المرأة جعلها تكني بالبيت، خصوصا أنها تناجي ربها، كما أن اشتمال تلك اللفظة على معنى الزواج فيه تبرؤ، من صلتها بفرعون إذ إنها بذلك تحل رقبتها من علاقتها بهذا الظالم، والتمست العوض عنه من ربها في الجنة، لذا ورد أن الله استجاب لها طلبها "فرأت بيتها في الجنة" [٢] وقيل: إن ربها أثابها أيضا بأن جعلها زوجة خير خلقه محمد . ﷺ . في دار كرامته [٣]، وهذا يكشف للمتلقي عن فطرة المرأة وطبيعتها التي لاتميل إلى الوحدة بل دائما تميل إلى تبعيتها إلى زوجها، بسبب ضعف بنيتها وعواطفها وأحاسيسها التي خلقها الله تعالى فيها .

وقد أظهرت تلك المرأة لونا من أسمى ألوان الأدب في الدعاء، حيث قدمت (عندك) على (في الجنة)؛ " للإشعار بأن محبتها للقرب من رحمته– تعالى–

---

(١) لسان العرب، (مادة : بنى)

(٢) البحر المحيط : ١٠ / ٢١٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٨ / ١٦٦، في تفسيره قول الله تعالى:﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(سورة التحريم ، الآية :٥) .

أهم من أى شيء آخر "[1]، حتى وإن كان هذا الشيء هو الجنة، لذلك لم تقل: (رب ابن لي بيتًا في الجنة)، ولم تقل أيضا :(ربّ ابن لي بيتاً عندك في الجنة) بل قالت:﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا ﴾ حيث طلبت أولاً اللذة المعنوية، ثم اللذة الظاهرية .

كما أنها بهذا التقديم قد اختارت "الجار قبل الدار...(فعندك) هو المجاورة، (وبيتا في الجنة) هو الدار"[2]؛ لأنها قد جربت السكنى الطيبة بجوار أهل السوء وعلمت أن القصور لا ينتفع أهلها بما فيها مادام أهلها أهل سوء .

وفي قولها:﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ استعملت فعل النجاة دون غيره كـ(الخلاص أو الإنقاذ)؛ لأن النجاة تلازمها السرعة[3]، وهذا يدل على شدة ما نزل بها من عذاب تعددت ألوانه[4] فلم تعد تقوى عليه لما فيها من ضعف النساء ووهنهن، ولعلها عندما رأت ما أعده الله لها في الجنة، تعجلت الخلاص مما هي فيه للتنعم بهذا العطاء الرباني.

وبعد أن طلبت الخلاص من ذات فرعون وكأنه صار بنفسه الخبيثة عذابا ودمارا يطلب الخلاص منه، تبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء، فعطفت عليه: ﴿ وعَمَلِهِ﴾، وهذا من باب عطف الخاص على العام، وكأنها رأت في عمله طامة كبرى ومصيبة عظيمة تحتاج إلى إفراد بالذكر، فهي بحكم ما كان يربطهما من علاقة الزوجية كانت ألصق الناس به، وكانت على دراية بما يقوم به من أعمال كفر وادّعاء الربوبية، وتعذيب بغير جرم إلى غير ذلك من القبائح التي بلغت النهاية في السوء والقبح وكانت آسية تُضطر

---

(١) تفسير الوسيط :١٤ / ٤٨٣ ، ونظم الدرر ٢٠ / ٢١٠.

(٢) البحر المحيط : ١٠ / ٢١٦ . .

(٣) لسان العرب، (مادة: نجا)

(٤) ورد أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد، واستقبل بها الشمس، وأضجعها على ظهرها، ووضع رحى على صدرها. وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقى بروحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. (الكشاف: ٤/ ٥٧٢) .

بسبب العشرة والحياة المشتركة إلى أن تعاين هذه الأفعال بنفسها ولا تستطيع تغييرها، فدعت ربها أن ينجيها من عقوبات تلك الأفعال ولا يؤاخذها بها .

وبعد أن تبرأت تلك الزوجة من مجتمعها الخاص، توجهت إلى المجتمع العام فطلبت من ربها أن ينجيها منه، ولعل ذلك لما عاينته من هذا المجتمع من إعانة على الظلم فقالت :﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾؛ لتتبرأ من كل من حام حول فرعون، واتبعه في طغيانه وكفره، ومن الملاحظ أنها لم تكرر العامل ﴿ نَجِّنِي﴾ مع (عمله) وكررته مع (القوم الظالمين) ولعل ذلك راجع إلى أن فرعون وعمله هما كالشيء الواحد، أما ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾فأمر مستقل يحتاج إلى إفراد في العامل، فقد ينجو الإنسان من فرعون ويقع في شراك أتباعه، ومن الملاحظ أنها لم تخصص قوم فرعون فلم تقل : (نجني من قومه الظالمين) وإنما طلبت النجاة من كل ظالم ليدخل في ذلك قوم فرعون وغيرهم، وبهذا تظهر تلك المرأة نموذجا يبرز جانبًا من جوانب قوة الشخصية لدى المرأة التي بها تستطيع المرأة أن تستعلى على كل مواقع السقوط، وتتجاوز نقاط ضعفها لتحولها إلى نقاط قوة، فلاتركن إلى حجة الضعف فتنزلق في كل مستنقع .

المبحث السابع

كلام أم موسى وأخته

تعد شخصية أم موسى . عليه السلام . شخصية إيمانية، وهي نموذج وقدوة للمرأة المؤمنة الصابرة، الواثقة بالله، المصدِّقة بوعده، المنفِّذة لأمره، التي كافأها الله على ذلك بالتكريم والثناء، وقد ورد كلامها هي وبنتها في موضع واحد في القرآن وهو قوله تعالى :﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ سورة القصص (١١، ١٢)

السياق والمعنى

أتى كلام أم موسى . عليه السلام . في سياق حديث سورة القصص عن قصة موسى . عليه السلام . ، وقد ذكر النظم الحكيم أنه بعدما امتثلت أم موسى . عليه السلام . لأمر ربها ووحيه وألقت رضيعها ومهجة قلبها في اليم؛ خوفا عليه من بطش فرعون وجنوده، أحست أن قلبها كاد يتوقف لأنها تري ابنها عائما في صندوق وسط اليم؛ فأسرعت قائلة لابنتها: اتبعيه ولا تجعلي أحدا يشعر بك، فامتثلت الابنة أمر أمها وتتبعت أثر أخيها الحبيب، إلي أن وصل التابوت إلي بيت فرعون، ثم رأت ما كان منهم من البحث عن مرضعة ترضع الطفل الصغير الذي رفض كل من حاول إرضاعه، فقامت الأخت بطرح اقتراح لتدلهم على مرضعة للطفل؛ ليرجع موسى . عليه السلام . إلى حضن أمه آمنًا مطمئنا.

من بلاغة كلام أم موسى وأخته:

لم يسجل القرآن الكريم لأم موسى في هذا السياق سوى لفظة واحدة ﴿قُصِّيهِ﴾ وهي جملة تكونت من فعل أمر وفاعله، و(الهاء) مفعول به يعود على موسى . عليه السلام. ولعل قلة ما نقله القرآن عنها من كلام غرضه تصوير الحالة النفسية التي بها تلك المرأة، وصورها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة القصص :١٠)، ولعل هذه الحالة كانت سببا في قلة

كلامها، كما أن فيه تصويرا لضيق الوقت مع خطورة الأمر وحساسيته، وقد بين القرآن شدة حرص الأم على متابعة أمر رضيعها، فأوكلتْ هذه المهمةَ الخطيرةَ لأختِه، مع أنها فتاةٌ ضعيفةٌ، ولم تُرسل رجلاً من أهلِها ليبحثَ عن ابنِها وسطِ هذا المجتمعِ القاتلِ الظالمِ؛ لأنَّ الأمَّ تعلمُ أنَّه لا أحدَ أحنُّ ولا أرقُّ ولا أشفقُ على هذا الطفلِ بعدَها من الأختِ، وقد ألمح النظم لقصد هذا الاختيار حيث قال: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ ولم يقل: (لبنتها)، وكأن هذه المرأة عندما طلبت من بنتها هذا الفعل حاولت أن تثير فيها عاطفة الأخوة التي هي مدار المحبة الموجبة لامتثال أمرها، وأداء العمل على أتم وجه؛ لهذا آثرت استعمال لفظة (قص) دون غيرها؛ لأنها تدل على تتبع أثر الشيء بدقة وعناية حتى تصل إلى نهايته، والقاصُّ: الذي يأْتي بالقِصّة على وجهها كأَنه يَتَتَبّع معانيَها وأَلفاظَها[1]، وبهذا فهي تريد منها أن تلاحظه بعناية دون أن تغفل عنه لحظة حتى تعرف مستقره ثم تعود لتقص عليها ما عرفته؛ لهذا أتى بعدها قوله:﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ﴾" وبصر بالشيء صار باصرا له فهو يفيد قوة الإبصار، وقوة استعمال حاسة البصر والتحديق إلى المبصر، فـ(بصر) أشد من (أبصر)، والباء للسببية الدالة على شدة العناية برؤية المرئي حتى كأنه صار باصرا بسببه، أو الباء زائدة لتأكيد الفعل فتفيد زيادة مبالغة في معنى الفعل".[2]

و تسرع الأخت لتنفيذ أمر الأم، وكانت الفتاة صاحبة عين بصيرة، فلم تغفل عن أخيها لحظة واحدة، وأخذت ترقبه بطرف عينها من بعيد، ولم تدن منه، وهذا من حسن صنيعها وذكائها وفطنتها حتى لا يُشك فيها، وظلت ترقبه حتى وجدت فرصة مناسبة لِتَرُدَّ بها أخاها لأمها، حيث وجدت أن أهل القصر يعرضون الطفل على جملة من المرضعات، والطفل يأبى أن يقدم على الإرضاع من أي واحدة منهن، هنا ألهم الله تلك الفتاة بأن تعرض عليهن

(١)لسان العرب، (مادة: قصص) :
(٢)التحرير والتنوير : ٢٠/ ٨٣ .

المساعدة فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾(سورة القصص:١٢) ، ومن الواضح أن أخت موسى بذلت في إقناع فرعون ومن معه وسعها، بعد أن تغلبت على ما بداخلها من مخاوف، وقد تحايلت على قوم جبارين؛ حتى أنقذت أخاها من بين أيديهم، فأتى كلامها في صورة الاستفهام الذي خرج إلى معنى العرض والإرشاد، ومن الواضح أن تلك الفتاة كانت حذرة حينما عرضت مساعدتها فراعت التلطف واللين في تقديم عرضها، وظهر هذا التلطف في استعمالها الاستفهام، ومعلوم أن الاستفهام ألطف من غيره، كما أنها استعملت لفظة (أدلكم) دون غيرها كـ(أرشدكم)؛ لأن (دل) تحمل معنى الهدى مع السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل[١]، أما (أرشد) فتدل على أن المخاطب كان في غي وضلال، وهي بحكمتها اختارت ما فيه تلطف لا ما فيه إشعار بالتعالى أو تلويح بضلالهم[٢]، كما أن طريقة العرض التي استعملتها فيها إبعاد للظن والشك عن نفسها حتى لا يقع في أنفسهم أنها تعرفه، فيرغمونها على أن تخبرهم من هو؟.

وقالت:﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ ﴾ بتنكير لفظتي (أهل) و(بيتٍ)، لتوسع عليهم دائرة الظن والشك، كما أن فيه إخراجا لكلامها مخرج النصح العام حتى لا ينكشف أمرها، فقالت "أَهْلِ بَيْتٍ" ولم تَقُلْ مُرْضعة؛ "لتلاحظ مدى استجابتهم للعرض، ولتُبْعِدَ الشبهة عن أن تكونَ أُمُّه في هذا البيت، خوفاً على أخيها وأمّها، فلمَّا استوثقت من تلهفهم، وصدق رغبتهم، وَأَنَّهُم لمْ يشْعُروا بأنّها ذات علاقةٍ ما بالطفل، دلَّتْهُمْ وأخَذَتْ بهم إلى أمّها "[٣].

---

(١) لسان العرب، (مادة: دلل) .

(٢) السابق، (مادة: رشد) .

(٣) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ):٤٠٢/١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

كما أن فيه " إشارة إلى أن المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك وهم له ناصحون لا يقصرون في خدمته وتربيته"[١]، وفيه أيضا أن هذا الطفل سيكون محل اهتمام البيت كله بخلاف لو قالت:(امرأة) ففيه إشارة إلى أن وجه الاهتمام سيكون من امرأة واحدة داخل البيت؛ لهذا لم تقل (أهل بيت يرضعونه لكم) بل قالت:﴿ يَّكْفُلُونهُ ﴾ أي يقومون على أمره، ويضمنون رعايته[٢]، بشكل مستمر ومتجدد وليس مجرد إرضاعه؛ لهذا عبرت بالفعل المضارع، وهذا الأمر من شأنه أن يجعل آل فرعون يوافقون على إرسال الغلام إلى هذا البيت.

وقدمت جملة الصفة ﴿ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ على جملة الحال ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؛ لأن هذا الأمر هو المقصود الأسمى لآل فرعون، وهو ما شغل ذهنهم وطلبوا من أجله المرضعات.

وختمت الآية بجملة حالية للمبالغة في بيان ما سيقدمه أهل البيت من اهتمام للغلام، وصدرت جملة الحال بـ(الواو) لدلالات بلاغية فطن الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى بعضها في حديثه عن الفروق الدلالية في مجيء جملة الحال بـ" الواو" ودونها، فيقول: "إن كل جملة وقعت حالا، ثم امتنعت من (الواو) فذاك لأجل أنك عمدت إلي الفعل الواقع في صدرها فضممته إلي الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت (الواو) فذاك لأنك مستأنف بها خبرا، وغير قاصد إلي أن تضمها إلي الفعل الأول في الإثبات"[٣]، "ومعني هذا أن "الواو" حينما تدخل علي جملة الحال لا يكون الغرض متجها إلي الحال وحدها وإنما يقصد إلي أمرين علي سبيل الاستقلال يجمع بينهما بـ"

(١) روح المعاني : ١٠ / ٢٦٠.
(٢) لسان العرب، (مادة: كفل).
(٣) دلائل الإعجاز : ١٨٩ .

واو " الجمع" [١]، يقول الإمام العلوي : " فإن كانت الواو محذوفة فهي في حكم التكملة والتتمة لما قبلها، تنزَّل منزلة الجزء منها...وإذا كانت الواو موجودة كانت في حكم الاستقلال بنفسها"[٢]

وتوظيفا لهذه الفروق الدقيقة في بناء الأسلوب، يكون هذا التعبير القرآني قد أحدث نوعا من المغايرة بين جملة الحال وما قبلها، وجعلها معنى مستقلا يوشك أن يكون أصلا برأسه؛ وذلك مبالغة في تأكيد مضمونها، وهذا يظهر لنا مدى حرص تلك الأخت على إقناع أهل القصر بعرضها الذي قدمته إليهم، فعمدت إلى المبالغة في بيان ما سيقدمونه لرضيعهم من عناية ونصح، لهذا عدل النظم عَنِ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ في:﴿ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ إِلَى الِاسْمِيَّةِ فِي ﴿وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾؛ " لِقَصْدِ تَأْكِيدِ أَنَّ النُّصْحَ مِنْ سَجَايَاهُمْ وَمِمَّا ثَبَتَ لَهُمْ فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: وَيَنْصَحُونَ لَهُ كَمَا قِيلَ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ؛ لِأَنَّ الْكَفَالَةَ أَمْرٌ سَهْلٌ بِخِلَافِ النُّصْحِ وَالْعِنَايَةِ.وَتَعْلِيقُ لَهُ بِـ(ناصِحُونَ) لَيْسَ عَلَى مَعْنَى التَّقْيِيدِ بَلْ لِأَنَّهُ حِكَايَةُ الْوَاقِعِ، فَالْمَعْنَى:أَنَّ النُّصْحَ مِنْ صِفَاتِهِمْ فَهُوَ حَاصِلٌ لَهُ كَمَا يَحْصُلُ لِأَمْثَالِهِ حَسَبَ سَجِيَّتِهِمْ" [٣]، وتظهر الفتاة نوعا من الذكاء في قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾ حيث أظهرت أن الضمير يعود إلى فرعون، ولكنها في الحقيقة أرادت به موسى . عليه السلام ، "هذا الأسلوب من الكلام الموجه، وروي أن هامان لما سمع هذا منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون فخلصت بذلك من الشر الذي يجوز لمثله الكذب وأحسنت وليس ببدع لأنها من بيت النبوة فحقيق بها ذلك".[٤]

---

(١) الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/محمد الأمين الحضري:٥٥٠،مكتبة وهبة،الطبعة الأولى،١٤٣٦هـ =٢٠١٥م

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ): ٢/ ١١١، المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٣) التحرير والتنوير :٢٠/ ٨٤

(٤) يراجع روح المعاني: ١٠/ ٢٦٠ .

والمتأمل لكلام تلك الأخت مع آل فرعون يجد أن النظم قد كشف عن شدة خوف الأخت على أخيها، وقد ظهر ذلك الخوف في حرصها على عودته إلى أمه، كما ظهر أيضا في صياغة ألفاظها، حيث اشتمل كلامها على حرف (اللام) مكررا سبع مرات (هل . أدلكم . على . أهل . يكفلونه . لكم . له) واللام حرف يدل على "الليونة ويشعر بالقرب والالتصاق" [1]، وهذا يصور الحالة التي تعيشها الأخت من الشفقة ومحاولة القرب من أخيها.

وبهذا تكون تلك الفتاة التي أرضت ربها في طاعة أمها، قد وفقت في كل المهام الموكلة إليها، فبإيمانها استطاعت أن تثبت أمام حاشية فرعون، وبذكائها استطاعت أن ترجع أخاها الوليد إلى أمه مرة أخرى .

ومن الملاحظ أن كلام أخت موسى عليه السلام ورد في سورة طه أيضا: وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (القصص، من الآية: ٤٠) ، والظاهر أن سورة طه تطوي الأحداث طيا فليس الغرض منها تفصيل ما حدث مع الأخت وما صدر منها، وإنما الغرض الأسمى هو بيان النعم التي امتن الله بها على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ إذ يقول تعالى:﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾(القصص: ٣٧)، وهذا يحتاج إلى سرد النعم دون تفصيل أحداثها، بخلاف سورة القصص فقد ورد كلام الأخت في سياق سرد أحداث القصة فكان المناسب أن يقع الاختصار في كلام الأخت في سورة طه، وأن يفصل في سورة القصص؛ لهذا تجد أن سورة طه ذكرت ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ فاستعملت (من) وهو اسم موصول مبهم عام، أما سورة القصص فورد فيها ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ ففصل ووضح، لذلك فقد أكمل النظم كلام الأخت في سورة القصص فقال: ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ ولم يأت بها في سورة طه.

(١) ينظر الخصائص : ٢/ ١٣٧. ، خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٧٩.

المبحث الثامن

كلام بنتي شعيب ـ عليه السلام ـ

ورد كلام بنتي شعيب في القرآن في موضع واحد في سورة القصص، وقد عرض القرآن الكريم قصتهما في إيجاز بليغ، ومع إيجازها فقد جعلت منهما أنموذجا للمرأة العاملة الحييّة التي اضطرتها ظروف الحياة للخروج إلى العمل ومخالطة الرجال، يقول تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ سورة القصص (٢٣ : ٢٦)

السياق والمعنى:

ورد كلام بنتي شعيب خلال حديث سورة القصص عن قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فعندما أتى موسى ـ عليه السلام ـ أرض مدين فارا من ، وجد على مشارفها بئرًا ، يسقى الناس منه ماشيتهم، ووجد خلف الناس امرأتين تمنعان أغنامهما عن التقدم إلى البئر، فذهب إليهما موسى ـ عليه السلام ـ وسألهماعن سبب تأخرهما، فقالتا : لا نقدر على أن نسقي أغنامنا إلا بعد انتهاء الرعاء من السقاية، وذلك لضعفنا، ولعجز أبينا عن فعل ذلك ، فسقى لهما غنمهما.

من بلاغة كلام بنتي شعيب:

أتى كلام بنتي شعيب في سياق واحد موزع على ثلاثة مشاهد؛ كاشفا عن جانب من خصائص كلام المرأة العفيفة الحيية التي اضطرت للخروج للعمل إلا أن حياء الأنثى لا يفارقها.

المشهد الأول: حوارهما مع موسى –عليه السلام– عند البئر، ويكشف النظم الحكيم في هذا المشهد عن جانب من أخلاق هاتين المرأتين عن طريق أمور ظهرت في ثنايا الآيات، منها: تحديد موقعهما من الناس عند البئر فقال:﴿مِن دُونِهِمُ﴾؛ ليدل على أنهما قد اختارتا مكانا بعيدا عن اجتماع الناس؛وهذا يدل على أنهما فتاتان نأت بهما محاسن أخلاقهما عن مزاحمة الرجال، ومن الواضح أن حالهما كان يدعو للإشفاق، بدليل أن موسى . عليه السلام . عندما وقعت عيناه عليهما استشعر حاجتهما للمساعدة فأسرع إليهما قائلا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، وعلامة الوصل الجائز واستحسان الوصل، يدل على أن موسى عليه السلام لم يتأخر عند رؤيته إياهما، وبادر إلى سؤالهما عن سبب وقوفهما بعيدا، وجاء الاستفهام في أوجز عبارة بما يوحي بأنه ما سأل إلا لما رأى ما يستدعى السؤال، فهم على الماء يبذلون جهدهم في ذود أغنامهم عن البئر كي لا تتقدم للسقي، وهذا أمر يستدعي العجب والسؤال، وفي استعماله . عليه السلام . لفظة الخطب ما يدل على رفضه لهذا المشهد الذي لم يراع فيه أحد هاتين المرأتين، حتى صار حالهم خطبا.

وأخرج موسى . عليه السلام . سؤاله على ما يقتضيه إشفاقه ورحمته بالضعفاء حيث سألهما عن الحكمة من التأخر والذود قصدا لأن يجاب بطلب المعونة، إلا أنهما لعلو همتهما أتى جوابهما عن السبب مع التعريض بطلب المعونة، وبيان ما جبلا عليه من الحياء والستر، فأتى جوابهما﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ دالا على ما تمتعت به كلتا المرأتين من حياء، حيث أتت الإجابة منهما فورية مباشرة إذ إن حياءهما يمنعهما من التصنع؛ لهذا فإن ما بين سؤال موسى . عليه السلام .، وبين إجابتهما يوجد علامة وقف تشير إلى أن الوصل أفضل، وتنحو بالخطاب منحى تسارعيا، يأخذ بالحوار بعضه بعضا في تسلسل واتصال؛ ليكشف عن أثر حياء المرأة في توجيه سلوكها مع الغير، ثم يأتي المضارع المنفي (لَا نَسْقِي) ليدل على أن بُعدهم عن مواضع الرجال من عاداتهم، كما أن المضارع بدلالته على إطالة الزمن يكشف عن شدة

المعاناة التي تقع عليهما وتجددها في كل مرة يقصدان فيها البئر، وحذف النظم مفعول (نَسْقِي، و يُصْدِرَ)؛ ليكشف عن جانب من حيائهما، والذي دعاهما إلى عدم تكثير الكلام وإطالة القول مع رجل أجنبي، فما صدر منهم على قدر الحاجة، وهذه من طباع المرأة الحيية، كما عدل السياق عن التثنية في(ما خطبكما، وقالتا) إلى الجمع في (نسقي) ؛ ليدل على أن هذا الفعل موجود في كل نسائهم فمتى حضرت إحداهن إلى البئر نزلت في مكان يجعلها في منأى عن الاختلاط بالرجال مما يدل على أن هذا خلق سائد متأصل فيهم يضرب بجذوره في أصولهم .

وفي استخدام حرف الجر(حتى) الدال على انتهاء الغاية و لا يجر إلا النهاية أو ما اتصل بها، ما يدل على فرط حيائهما وحرصهما على عدم الاختلاط بالرجال، فهما لا يقدمان على السقي بمجرد أن يقل الزحام، وإنما يحرصان على البقاء بعيدا حتى يخلو مكان السقي من كل الرجال.

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم استعمل لفظ (الرعاء) دون (الرعاة)، مع أن التاء أخف من الهمزة، إلا أن النظم عبر بالهمز رغبة في إشاعة جو من الصرامة والقوة في خطاب الفتاتين مع هذا الرجل الغريب، للدلالة على أنهما كانتا تتمتعان بثقة في النفس وبرباطة الجأش، ومعلوم أن الهمزة حرف يتمتع بالقوة[1]، وهذا الأمر يتناسب مع أمر المؤمنات في أنهن لا يخضعن بالقول مع غير محارمهن، كي لا يطمع فيهن الذي في قلبه مرض.

ومن حرص المرأتين على الدفاع عن حصن عفتهما ونفي الشبهة عن أنفسهما، وتبرئة ساحة الأهل من الزج بهما في مواطن الأذى، ذكرا العلَّة في خروجهما للِسقْي ومباشرة عمل الرجال فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، ومن الملاحظ أنهما سارعا بذكر هذه العلة، دون توقف ولا تمهل، بدليل علامة الوقف (صلى)؛ وكأنهما يقران بأن وجودهما في هذا المكان لأداء هذه المهمة

١. يراجع الخصائص : ٢/ ١٦٤.

ليس من اختصاص النساء، ولولا أن أباهما شيخ كبير ما اضطرتا للخروج؛لأن طابع الرقة والليونة سواء في بناء جسد المرأة أو تكوين طباعها يتنافى مع مثل هذه الأعمال، بخلاف الرجال.

المشهد الثاني: دعوة إحدى بنتي شعيب موسى لمقابلة أبيها، وقد طوى النظم أحداثا من القصة؛ لينتقل إلى هذا المشهد، وقدم النظم لكلام الفتاة بما يكشف عن أخلاقها، فقال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، فعبر بالفعل (جاء)؛ لدلالته على الصعوبة دون (أتى) الدال على السهولة[1]، ولعل الصعوبة هنا تتمثل فيما وجد داخل تلك الفتاة من إحراج وخجل ناتج عن دعوتها لأجنبي بقصد أن يأخذ أجر ما قدمه لهما من فعل، وهذا مما لا شك فيه يكون ثقيلا على النفوس الأبية التي تفعل الخير دون أن تنتظر له أجرا؛ لهذا عبر أيضا مع موسى بقوله :﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾؛ ليدل على أن موسى قبل الأمر على مضض وثقل، كما أن الثقل قد يكون من كرهها أن تصطحب هذا الأجنبي في طريقها إلي البيت وهذا أيضا من شأنه أن ينزل الخجل والثقل على نفس ملأها الحياء، وتربت على الستر.

ومجيء لفظة (تمشي) بعد (جاء) دون الاكتفاء بالمجيء، يدل على أنها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط، وهذا يدل على أن مشيتها على استحياء غير مفتعلة وإنما هي عادتها، ولو قال جاءته على استحياء لفات التنويه على هذا الأدب الذي كاد يفارق طباع النساء، فالمرأة طبيعتها تدعوها للتمايل في مشيتها بسبب التكوين البيولوجي لجسدها، فمتى تركت المرأة نفسها لطباعها تمايلت في مشيتها، لهذا فإن القرآن يصور لنا تلك الفتاة التي تحاول ضبط مشيتها حفاظا على حيائها، فتتغلب بحيائها على طبيعة جسدها .

(١) الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن، د/ محمود موسى حمدان: ١٧_ ٢٢، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .

ولما كان الحياء كأنه مركب فيها حتى ملكت زمامه وتمكنت منه، عبر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾؛ للتمكن من الوصف حيث جسد الحياء، وجعله كبساط ممدود تمشي عليه، لهذا جاءت لفظة(اسْتِحْيَاءٍ) نكرة للتفخيم، وعبر باستحياء دون حياء للمبالغة، " وهناك من يقف على قوله: ﴿تَمْشِي﴾ ثم يبتدئ فيقول: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ يعني أنها على الاستحياء قالت هذا القول؛ لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة "(١).

وجاء كلام تلك الفتاة في أقصر لفظ وأخصره في غير تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء، مع براعة في اختيار اللفظ الواضح الدقيق الذي لا يحتمل أكثر من معنى، ولا يثير تساؤلات ولايستدعي حوارا طويلا حوله فقالت:﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ مصدرا بالتوكيد "حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به وبيان مدى رغبة أبيها في لقائه، وإدخال المسرة على المخبر به"(٢) كما أنها أرادت أن تطمئن قلب موسى خصوصا أنه رجل غريب قد يمتنع أن يعمل بقول امرأة، وأن يمشي معها وهي أجنبية عنه، فأرادت أن تؤكد له أن ما تخبره به ليس كذبا ولا خداعا، وإنما هو أمر مؤكد، كما أن حياءها دفعها لتقديم التأكيد كي لا يظن موسى أنها هي صاحبة الدعوة؛ لهذا أسندتِ الدَّعوةَ إلى أبيها تأدبا واحتراسا، وعللتها بالجزاءِ؛ لتدفع عن نفسه الظنون فلا يرتاب منها، كما أنها عبرت بالمضارع؛ لتصوير الدعوة الصادرة من أبيها وكأنه هو من يدعوه، وبهذا تزول أي ريبة قد يتوهمها موسي في كلامها. وفي هذا دلالةِ على كمالِ العقلِ والحياءِ والعفَّةِ ما لا

(١) مفاتيح الغيب :٢٤/ ٥٩٠ ، واللباب في علوم الكتاب،ابن عادل:١٥/ ٢٣٩، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.

(٢) نظم الدرر:١٤: ٢٦٨، والتحرير والتنوير : ٢٠/ ١٠٤

يخَفْى، إذ إنها جمعت بين "الحياء والإبانة والدقة والوضوح لا التلجلج والتعثر والربكة، وهذا من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحيي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها لا تضطرب الاضطراب الذي يطمع ويغري إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب، ولا تزيد"(١).

وعبرت بالمصدر المؤول في: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لأنه يتيح الكلام لإفادة اعتبارات من شأنها أن تقوى المعنى أو تجعله أنسب للمقام، وذلك عن طريق استعمال (ما) المصدرية التى أضفت على السياق نوعا من الإيهام، الدال على أن ما فعله معهم من الأمور كان له عند الأب شأن عظيم وقدر كبير، وهذا من شأنه أن يجعل موسى عليه السلام يعرف مدى اعتناء الأب بمقابلته.

المشهد الثالث: طلب إحدى الفتاتين من أبيها أن يستأجر موسى ـ عليه السلام ـ

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وهذا القول يكشف عن رغبات مخبوءة لدى تلك الفتاة ظهرت في ثنايا كلامها تمثلت في كرهها الخروج لهذا العمل؛ لما فيه من معاناة ومشقة لا تتناسب مع طبيعة المرأة عامة والعفيفة صاحبة الفطرة السليمة خاصة، لما في ذلك العمل من مزاحمة الرجال والاختلاط بهم، ومعلوم أن حياء المرأة يحجبها عن مخالطة الرجال؛ لذا حاولت جهدها إقناع والدها أن يوفر لهما مَنْ يقوم بما فرضته عليهما ظروف الحياة وضروراتها؛ لِتقَّر في بيتها عفيفة مستورة؛ ومن الواضح من كلامها أنها لم تتلعثم ولم تضطرب حينما اقترحت على والدها هذا الاقتراح؛ لأنها" لا تخشى سوء الظن والتهمة، فهي بريئة النفس، نظيفة الحس ومن ثم لا تخشى شيئا، ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها"(٢)؛ لهذا استهلت كلامها بنداء أبيها وكأنها تنبهه لأمر غفل عنه، و"استعملت في ندائها

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٢٦٨٧.
(٢) في ظلال القرآن:٥/ ٢٦٨٧.

أداة البعد استصغارا لنفسها وإجلالا لأبيها"[1]، وفي قولها (أبت) استعطاف لجانب أبيها رغبة في الاستجابة لطلبها، وجاء فعل الأمر (اسْتَأْجِرْهُ) منها على سبيل الالتماس.

ولما علم أنه ليس من شيم فتاة عرف عنها الحياء أن تبوح بمشاعرها تجاه رجل بوحا سافرا، لجأت المتحدثة بسرعة ودون انقطاع أو توقف إلى كلام جامع مانع؛ ليكون تعليلا جاريا مجرى الدّليلِ في محاولة منها لإقناع الوالد بأنَّ هذا الشخص حقيقٌ بالاستئجارِ؛ فقالت:﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾وصدرته بالتأكيد، وعبرت بلفظة(خير) وقدمتها وجعلتها اسمًا لـ(إنّ)، مع صحة جعل القوي الأمين هو المسند إليه؛ للاهتمام والمبالغة بأمر الخيرية ، فأوثر بالتقديم ماهو أهم وأولى بالعناية؛ لأن الجملة سيقت مساق التعليل لجملة استأجره، فوصف الأجير أهم في مقام تعليلها، ونفس السامع أشد ترقبا لحاله، كما أن الخيرية أمّ الكمال المبني عليها غيرها.[2]

وكما أنها عبرت بالفعل الماضي﴿اسْتَأْجَرْتَ﴾؛ لتأكيد حدوث الفعل، فهي لما عرفت صفاته وجربتها، تأكد لديها استجابة والدها لطلبها، فأنزلت مالم يحدث منزلة ما حدث، وكأن تلك الفتاة تعرف طبع والدها وتعلم أنه متى علم بخلقه وافق على طلبها في الحال .

وعدلت الفتاة عن تخصيص الحديث في (استأجره) إلى العموم في ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فعبرت بـ(لام) الجنس في القوي الأمين؛ لإفادة العموم، كما استعملت (من) الموصولة الدالة على العموم، فخرج كلامها مخرج المثل والحكمة حيث استعاضت بالقاعدة العامة عن الوصف والمدح الخاص لشخصه، الذي قد ينبئ عن جرأة غير ممدوحة، وهذا المدح من المرأة للرجل أجمل من المدح الخاص، وأبقى للحشمة "ومجيء هذا العموم عقب

(١) نظم الدرر :١٤/ ٢٣٩ بتصرف.

(٢) يراجع نظم الدرر:١٤ / ٢٦٩ ، وروح المعاني:، والتحرير والتنوير: ٢٠/ ١٠٦.

الحديث عن شخص معين يؤذن بأن المتحدث عنه ممن يشمله ذلك العموم فكان ذلك مصادفا المحز من البلاغة إذ صار إثبات الأمانة والقوة لهذا المتحدث عنه إثباتا للحكم بدليل، فتقدير معنى الكلام: استأجره فهو قوي أمين وإن خير من استأجر مستأجر القوي الأمين. فكانت الجملة مشتملة على خصوصية تقديم الأهم وعلى إيجاز الحذف وعلى المذهب الكلامي، وبذلك استوفت غاية مقتضى الحال فكانت بالغة حد الإعجاز"[(١)]، وعمدت الفتاة إلى تلك الصفتين: (القوي،والأمين)؛"لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك" [(٢)].

ومما سبق نجد أنه على الرغم من أن القصة توحي بأن تلك الفتاتين قد توفر لديهما قدر كبير من الحياء، إلا أنها كشفت أيضا عن جانب القوة والوضوح والثبات لديهما، وهذا يدل على أن الخضوع والترقق في القول خصوصا مع الأجنبي ليس من طباع العفيفات بل هو مناف لطابع الحياء

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير : ٢٠/ ١٠٦.

(٢) نظم الدرر :١٤ / ٢٦٩ ، روح المعاني:١٠ / ٢٧٥.

المبحث التاسع

كلام أم المؤمنين حفصة

ورد كلام أم المؤمنين حفصة في القرآن في موضع واحد في سورة التحريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ سورة التحريم : الآية (٣).

السياق والمعنى

أتى كلام أم المؤمنين حفصة في سياق حديث سورة التحريم عما وقع بين النبي –ﷺ– وحفصة وعائشة . رضى الله عنهما ـ حيث ثبت عن عائشة أن النبي –ﷺ– كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا قَالَتْ فَتَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ –ﷺ– فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ [١] فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ) [٢] " أراد بذلك النبي –ﷺ– استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة؛ لأنه يكره غضبها فأخبرت حفصة عائشة، فلما علمت حفصة أن النبي قد علم أنها قد أفشت سره، أرادت أن تعرف من أطلعه على هذا الأمر فصدر منها هذا الكلام الذي قصه القرآن في سورة التحريم[٣].

---

(١) المغافير صمغ يسيل من شجر العرفط غير أن رائحته ليست بطيبة (لسان العرب : مادة غفر).

(٢) صحيح الإمام مسلم، للإمام مسلم : ٢/ ١١٠٠ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي – بيروت بدون تاريخ .

(٣) يراجع التحرير والتنوير : ٢٨/ ٣٤٤.

من بلاغة كلام أم المؤمنين حفصة:

أول ما يطالعنا في كلام أم المؤمنين . رضي الله عنها . أنه فصل عما قبله من كلام﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾، لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فالجملة الثانية جواب عن سؤال مقدر ناتج عما قبله تقديره ماذا قالت بعد أن نبأها بمعرفة إفشاء السر ؟

وجاء كلام أم المؤمنين في صورة استفهام حقيقي ممزوج بالدهشة والتعجب، الناتجين عن علم النبي -ﷺ- بما حدثت به عائشة ـ رضي الله عنهاـ "فاستفهامها يدل على ثقتها بأن عائشة لا تفشي سرها وعلمت أنه لا قبل للرسول -ﷺ- بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي فرامت التحقق من أحد الاحتمالين".(١)

وسمى النظم تلك الواقعة (نبأ) لا (خبر) (٢) إشارة إلى أن إفشاء هذا السر كان له أثر كبير فى بيت النبىّ، وأنه أحدث هزّة، كشأن كل خبر مثير، يغطّى على غيره من الأخبار لما له من شأن عظيم، لهذا فقد نبأه الله بأمر ما كان من زوجته، وعاتبها النبي -ﷺ- على ما فعلت، وهذا يدل على أن الأمر كان ذا شأن وخطر، وهذا يناسبه التعبير بلفظ النبأ لا الخبر، يقول الإمام ابن عاشور: "وإنما نبأها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإن الله ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل ... وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٠/ ٣٥٣.

(٢) النبأ لَا يكون إِلَّا للإخبار بِمَا لَا يُعلمهُ الْمخبر، والأخبار عَظِيمة الشَّأْن بخلاف الخبر. يراجع الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ): ٤١، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر ، بدون تاريخ .

عظيمة" [١]، كما أن هذه الأنباء لم تكن كاذبة بل هي من رب العالمين أخبر بها نبيه، "وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب"[٢] .

ومن دقة النظم أنه أجرى على لسان أم المؤمنين حفصة لفظة (أنبأ) على وزن (أفعل) ثم عدل إلى لفظة (نبّأ) على وزن (فعّل) بالتضعيف وأجراها على لسان نبيه، ومعلوم أن التضعيف يدل على المبالغة والتكثير، وهذا التغاير ليس من باب الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها، فلكل كلمة من كلماته مقتضى مقامي وسياقي، وبمراجعة الآية تجد أن النبي -ﷺ- حينما عاتب أم المؤمنين حفصة لم يستقص في العتاب تمشيا مع أدبه الكريم وتلطفا في العتب والإعراض عن استقصاء الذنب، فذكر بعض الأشياء وسكت عن بعض، وقد صرح القرآن بذلك في قوله تعالى:﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ فلما سمعت منه بعض ما أخبرت به عائشة ولم تسمع الباقي ظنت أنه أعلم ببعض كلامها، فعبرت بلفظ (أنبأ)، وهي دون (نبّأ)، إلا أن الرسول . صلى الله عليه وسلم . رد عليها بقوله: ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فاستعمل لفظة (نبّأ) على صيغة (فعّل) الدالة على المبالغة والتكثير؛ ليشير إلى أن الله قد أعلمه كل ما كان منها على وجه التفصيل، لا الطرف الذي حدثها به وحده، كما أنه حذف المتعلق اختصاراً للفظ وتكثيراً للمعنى بالتعميم، إشارة إلى أنه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة . رضي الله عنهما . مما عرفها به ومن غيره على أتم ما كان

كما أن لفظة (نبأ) "أبلغ تنبيها على تحقق مقولة النبي لكونها من عند الله"[٣]؛ لذا ختمت الآية بقوله:﴿ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾؛ " للدلالة على إحاطة الله تعالى علما

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٣٥٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ): ٧٨٩، تحقيق: صفوان عدنان الداودي : دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

(٣) السابق : ٧٨٩.

وخبرا بكل شيء،... فيتضح أن إتباع وصف العليم بوصف الخبير إيماء إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السر للأخرى، وقد حصل من هذا الجواب تعليمها بأن الله يطلع رسوله -ﷺ- على ما غاب"(١).

(١) التحرير والتنوير : ٢٨/ ٣٥٤.

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، سيدنا محمد -ﷺ- وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد كانت هذه دراسة بلاغية تحليلية لجميع ما ورد في القرآن الكريم من كلام النساء، وكان أوضح ما انتهت إليه الدراسة:

١. الخطاب النسائي من أنواع الخطاب القرآني المتميز في مضمونه وأسلوبه، فكثرت فيه الدلالات التي عبرت عن جوانب نفسية واجتماعية لقائلاتها حيث استخدم الخطاب القرآني البنية اللغوية؛ لإظهار الطبيعة الأنثوية، وما فيها من عاطفة وانفعال وضعف.

٢. مَثَّل كلام النساء في القرآن نماذج متعددة من أصناف النساء، فهناك الأم، والبنت، والزوجة، والمطلقة، والملكة، والماكرة، والمؤمنة، والكافرة والتائبة ... وعبر بالطريقة المناسبة وأدوات البلاغة المختلفة عن كل شخصية بما يكشف عن خصائصها .

٣. أن النساء شريحة من المجتمع تشارك غيرها في بعض خصائصه الكلامية وتنفرد بخصائص تتناسب مع طبيعتها.

٤. تحرص النساء في كلامهن على تأكيد المعنى باللفظ والحركة والانفعال.

٥ـ تستجيب المرأة لمشاعرها فتتفاعل مع الحدث وتعبر عنه عفوا فتجد من تلبست بحياء يختلف عمن غرقت في يَمّ الشهوات .

٦ـ أثبت الخطاب الوارد عن المرأة قدرتها على التغلب على نقاط ضعفها وتجاوزها، متى استبانت الحق وآمنت به.

٧. إذا كان من طباع المرأة الإطالة في الكلام والوقوف على تفاصيل الأشياء، إلا أنها أحيانا تركن إلى الإيجاز في كلامها، والفيصل في ذلك هو حالتها النفسية وما يسيطر عليها من شعور، فهي في حالات الاضطراب يضيق صدرها عن الكلام .

٨. حرص النظم على التعبير بألفاظ تكشف عن خصائص النساء، وكانت للأساليب البلاغية حضورها القوي في بيان تلك الخصائص.

٩. أظهرت الدراسة أن المرأة إذا أرادت فعل أمر من الأمور شغل بالها به، حتى يظهر ذلك في ثنايا حديثها عن طريق انتشار ألفاظ التأكيد ونحوه في الكلام.

١٠. أظهرت الدراسة أن خلق الحياء لا يعنى الخضوع والترقق في القول أو الفعل، إنما الحياء لايكتمل إلا إذا اتسمت المرأة بالثبات قولا وفعلا.

١١. تميل الأنثى في حديثها عن خصوصيات النساء إلى الكناية غالبا كأداة تنقل من خلالها خواطرها، وما يجيش في نفسها من خواطر، خصوصا إذا كان الحديث مع الرجال، أو فيه تضرع ودعاء.

١٢. تفاوت خطاب المرأة القرآني تبعا للمستوى الثقافي والحضاري ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم و الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة .

١٣. كشف البحث عن أن طبيعة النساء تميل إلى المبالغة في الحزن والجزع إذا نزل بهن ما يكرهن، ويظهر ذلك في ما يخرج منهن من كلام.

١٤. كلام النساء مع الرجال الأجانب ليس حراما طالما أنه مغلف بضوابط الشرع، وكان في حدود الحاجة.

١٥. إذا وجدت المرأة خطرا يداهم عرضها . خصوصا إذا اتسمت بالتقى . بذلت كل ما تملك من مقومات بالفعل والقول لتدفع عن نفسها ما نزل بها، وغالبا ما تلجأ إلى الاستغاثة، وطلب العون.

١٦. أبرزت الدراسة قوة تحمل المرأة وشدة عزيمتها إذا هي تلبست بالإيمان واعتمدت على ربها.

١٧. إذا خلعت المرأة حياءها وسلمت نفسها لشهواتها، . وخصوصا إذا كانت من أصحاب الترف والغنى . تخلت عن التعبير بالكناية إلى التصريح،

وصرحت في كلامها بألفاظ تدل على السفور.

١٨. من طباع المرأة حب تملك الأشياء خصوصا إذا سيطرت على الأمور وكانت هي الحاكمة.

١٩. تميل المرأة في أقوالها غالبا إلى اللين، وتتجنب الخشونة، وتميل في أفعالها إلى السلم، وتنأى عن العنف وويلات الحرب .

٢٠. للمرأة القدرة على معرفة طباع زوجها، وطرق تفكيره، وهذا يساعدها على إمكانية التأثير عليه بكلامها، وطرق تعبيرها .

٢١. طبيعة المرأة لا تميل إلى الوحدة بل تفضل التبعية للزوج، بسبب ضعفها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

٢. الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن، د/ محمود موسى حمدان: ١٧_ ٢٢، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (المتوفى: ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٤. الأصوات اللغوية، عبد القادر عبد الجليل ،دار صفاء للنشر، الطبعة الأولى،عمان، ١٤١٨هـ ،١٩٨٨ م

٥. إعجاز القرآن للباقلاني،(المتوفى: ٤٠٣هـ) ، تحقيق: السيد أحمد صقر: دار المعارف – مصر الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م

٦. الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ) تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.

٧. البحر المحيط، لأبي حيان (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق : صدقي محمد جميل: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٨. بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.

٩. البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ) دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

١٠. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د/ فاضل السامرائي: ، الطبعة الثانية، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م .

١١. التحرير والتنوير لابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر –١٩٨٤هـ.

١٢. تربية الأبناء والأولاد في ضوء القرآن والسنة، خالد عبد الرحمن ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.
١٣. التعريف والإعلام فيما أبهم من أسماء الأعلام في القرآن الكريم، للسهيلي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م.
١٤. تفسير الشعراوي – للشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ): مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
١٥. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد سلامة: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
١٦. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي – القاهرة.
١٧. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٠ م.
١٨. التفسير الوسيط ، أ.د/ محمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى ، ١٩٩٨ م .
١٩. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد ابن الأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ) ، تحقيق: محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م .
٢٠. جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.
٢١. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.
٢٢. الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي (المتوفي : ٧٤٩)، تحقيق طه محسن، مؤسسة الرشد الرياض، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م.

٢٣. الحجة للقراء السبعة لأبي على الفارسي(المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق: بدر الين قهوجي، دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
٢٤. الخصائص لابن جني (المتوفى: ٣٩٢هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: الرابعة.
٢٥. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ المطعني مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٢٦. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط: دار القلم، دمشق، بدون تاريخ
٢٧. دراسات جديدة في إعجاز القرآن أ. د / عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .
٢٨. دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ) ، تعليق : محمود محمد شاكر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٢٩. ديوان امرئ القيس ، شرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية،١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
٣٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
٣١. السلسلة الضعيفة، للألباني ، مكتبة المعارف – الرياض ، بدون تاريخ.
٣٢. صحيح مسلم، للإمام مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بدون تاريخ .
٣٣. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ) المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٤. الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، بدون تاريخ.
٣٥. في ظلال القرآن سيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ):. دار الشروق – بيروت– القاهرة، السابعة عشر – ١٤١٢ هـ .
٣٦. الكتاب، سيبويه : تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، عالم الكتب بيروت، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.
٣٧. الكشاف، للزمخشري، (المتوفى: ٥٣٨هـ) : دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.
٣٨. الكليات، أبو البقاء الكفوي، (المتوفى:١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة – بيروت.
٣٩. اللباب في علوم الكتاب،ابن عادل:١٥/ ٢٣٩، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.
٤٠. لسان العرب، لابن منظور : تحقيق: عبد الله علي الكبير ، ،هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف.
٤١. اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر عالم الكتاب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م
٤٢. اللغة والجنس ، عيسى برهومة . دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٢م .
٤٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
٤٤. مختصر المعاني، التفتازاني: ٩١، دار الفكر، الطبعة: الاولى١٤١١هـ.
٤٥.مسائل الرازي وأجوبتها من غريب آي التنزيل / لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق، د/ حمدي الشيخ، دار اليقين، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦ م.

٤٦.مع البيان القرآني في سورة يوسف، د/ إبراهيم عوضين، دار السعادة، القاهرة ، ط الأولى ، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م .
٤٧.معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د/ محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة بدون تاريخ.
٤٨. مغني اللبيب، ابن هشام، تحقيق/ محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م .
٤٩. مفاتيح الغيب، للرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت لطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .
٥٠. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢)، تحقيق صفوان عدنان، الطبعة الأولى، الدار الشامية بيروت ، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .
٥١. المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ): ٧٨٩، تحقيق: صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ.
٥٢. من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين، الطبعة الأولى شركة مكتب عكاظ، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٥٣. من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، أحمد كشك، دار السلام ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
٥٤. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ) تحقيق: علي محمد الضباع (المتوفى١٣٨٠هـ) المطبعة التجارية الكبرى.
٥٥. الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/محمد الأمين الحضري: ،مكتبة وهبة،الطبعة الأولى،١٤٣٦هـ =٢٠١٥م .
٥٦. وحي القلم،للرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٥٧. يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ ، لأحمد عز الدين عبد الله خلف الله: ، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ =١٩٧٨م .

فهرس الموضوعـــات

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٥٥-١٥٩
المبحث الأول: من الخصائص البلاغية في كلام امرأة عمران.	١٦٠-١٨٢
المبحث الثاني: من الخصائص البلاغية في كلام مريم.	١٨٣-٢٠٦
المبحث الثالث: من الخصائص البلاغية في كلام سارة زوج إبراهيم . عليه السلام	٢٠٧-٢١٥
المبحث الرابع: من الخصائص البلاغية في كلام امرأة العزيز، ونسوة مصر .	٢١٦-٢٦٧
المبحث الخامس: من الخصائص البلاغية في كلام بلقيس.	٢٦٨-٢٨٦
المبحث السادس: من الخصائص البلاغية في كلام آسية امرأة فرعون.	٢٨٧-٢٩٥
المبحث السابع: من الخصائص البلاغية في كلام أم موسى . عليه السلام وأخته	٢٩٦-٣٠١
المبحث الثامن: من الخصائص البلاغية في كلام بنتي شعيب.	٣٠٢-٣٠٣
المبحث التاسع: من الخصائص البلاغية في كلام حفصة زوج النبي . ﷺ	٣١٠-٣١٣
الخاتمـــة	٣١٤-٣١٦
فهرس المصادر والمراجع	٣١٧-٣٢١
فهرس الموضوعات	٣٢٢